بهيج إسماعيل

المَنْفى والملكوت



رواية

دار العين للنشر

المَنْفى والملكوت

رواية

بهيج إسماعيل

الطبعة الأولى / ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف إهداء من الفنان الكبير: فاروق الرزاز

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٧/٢٦٥٢٨
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 478 - 3

المَنْفى والملكوت

رواية

بهيج إسماعيل

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

إسماعيل، بهيج

المَنفى والملكوت: رواية/ بهيج إسماعيل.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٨

ص، سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٤٧٨ ٣

١ – القصص العربية

أ– العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٦٥٣٨ / ٢٠١٧

إهــداء

إلى:

العقول التي أضاءت لنا:

طه حسين

نجيب محفوظ

صلاح جاهين

أحمد زويل

مجدي يعقوب

وإلى الأصوات التي آنستنا:

أم كلثوم

فيروز

نجاة

زهرة اللوتس

وإلى: كامل الشناوي: عاشقًا للحياة

وإلى: إيمان الخضري: أُمًّا مُثلى

وإلى الشباب الحي: غاضبًا الغضب النبيل

لافتة

يا طالما كتب البستاني
على أشجار الحديقة:
لا تسقطوا الثمار
لكن الريح لا تعرف القراءة

الحديقة

يقول لي:

"لا تكبري" فلم أكبر. قد أبدو لك كما لو كنت في العشرين مع أني لم أتجاوز السادسة عشر.. ربما كان هو كبيرًا في السن.. لكني أحبه كما هو وأعشقه كما هوبينما يعاملني كطفلة. نضج جسمي مبكرًا.. في الثانية عشر ربما أو قبل ذلك ولفَتُّ نظره لأول مرة وأنا في الثامنة.. كان يوم عيد.. أبي مشغول بأرض الحديقة لا يرفع عنها عينيه وأمي غائبة -كعادتها- تندب شقيقي الذي مات صبيًا قبل أن أولد- وأنا أراقص فرحة العيد حولي حين جاءني صوته رحيمًا -كصوت ملاك- وهو في طريقه للخروج للسيارة التي تنتظره: "من هذه الفراشة يا حامد؟"

توقفت عن الرقص وتوقفت معي الجونلة البيضاء القصيرة التي ارتديها لأول مرة وانتبه أبي من غفلته وانتفض واقفًا يفرك الطين عن كفيه ينظر لصاحب القصر ولي كأنما يراني لأول مرة.. وأنا رحت أرقص من جديد أنبه أبي أن له بنتًا تبدو لغيره كالفراشة..

تجهم وجهه وتقلص وهو يوجه نظراته النارية إلى الجونلة القصيرة وقال: "هذه ابنتي ندى ياسيدي"

مسَ السيد خدي بكفه وسأل أبي:

"في أي مدرسة ابنتك يا حامد؟"

"نحـــن لا نعلّم البنات يا ســـيدي الدكتـــور" ردّ أبي باقتضاب.. قال الدكتور يســـري وهو يواصل ســـيره إلى حيث السيارة خارج القصر:

"أدخلها معهد الباليه" ومضى.

وبقدر ما أحسست بلمسته تلك على خدي بقدر ما غضبت إذ كيف لم يرني إلا اليوم؟ كيف كان يتجاهلني وهو يعبر الحديقة كما لو كنت هواء لا يُرى؟ وغضبت أكثر أنني لم أعلن احتجاجي أمامه لكنني فرحت فيما بعد أنني سأصبح تلميذة وسأذهب إلى المعهد وسأخرج من هذا العالم المحدود الذي أقضيه نهارًا جالسة بجوار أمي الحزينة أو مع الطباخة الأجنبية -والتي استغنينا عنها فيما بعد- لم أكن أعرف شيئًا عن معهد الباليه هذا فقد كان الخروج أو مشاهدة التليفزيون ممنوعين عني بأمر أبي.. لكنني رسمت لنفسي صورة في ذهني وأنا أتبختر في المريلة كالتلميذات في طريقي للمدرسة، لم أكن أعرف أن أبي قد قرر دفني حية!!.. سأل في البداية أمي عمن أحضر لها تلك الجونلة القصيرة التي تكشف عن

ساقيها؟ فأقسمت له بعد أن هددها بالطلاق أنها لا تعرف.. سأل البواب فأخبره أن السائق يعرف.. سأل السائق فأخبره أن الدكتور يسري أعطاه مبلغًا من المال -كعادته في الأعياد- وطلب منه شراء ملابس جديدة لأبنائه وبناته، فاعتبرني السائق كابنته واشترى لي هذه الجونلة وأعطاها لي خفية بعد أن أخبرني أنها "عيدية الدكتور" خبأتها في الدولاب -كما أخبيء الأفراح في قلبي- ولبستها في العيد وكما سأل أبي عن الجونلة وأحرقها سأل أيضًا عن معهد الباليه وعاد كالمجنون، شاط الطبلية بما عليها من نعمة ربنا فطار الطعام كله في الهواء وصرخ في أمي: "احبسيها في بدروم الحديقة مع أدوات الفلاحة لا تخرج منه حتى نتصرف" لم أفهم لماذا أحبس في ذلك المكان المظلم ونحن ما نزال في أيام العيد.. لم أفهم ولا أمي فهمت.. صمتّ وانزويت في حضن أمي بينما صوته يجار: "قصي لها شعرها واحرقي كل ملابسها لا تلبس إلا كلسونات الصبيان ولا أسمع لها صوتًا حتى نعود بها إلى بلدنا في الفيوم فندفنها حية.

أخذ جسمي يرتعش بشدة، وأطرافي تتثلّج، وما عدت أرى شيئًا فتهاويت ممددّة على الأرض، صرخت أمي "البنت ستموت.. لو ماتت سأموت وراءها يا حامد.. يكفينا الولد الذي مات".. يصرخ أبي:

"الدكتور يريدها أن تلتحق بمعهد رقص.. يريدني أن أسلم ابنتي

بيدي لتكون رقّاصة"! بدأت أمي تندب بينما أبي يدفعني خارجًا بي من الحجرة وأنا أتشبث بجلباب أمي.. حملني إلى القبو ودفعني داخله وأغلق علي الباب.

قضيـــت داخل القبو المظلم ســبعة أيام لا أنـــام.. تطير حولي الخفافيش والعناكب.. أحاول أن أرسم صورة للموت الذي ينتظرني في الفيوم.. هل هو شــبح؟ هل هو ملاك؟ هــل هو مؤلم؟ هل هو مريح؟ هل سأذهب إلى النار؟

أقول لنفســي: أنا لم أرتكب ذنبًا أروح بسببه النار اللهم إلا ذلك الإحســـاس داخلي -رغمًا عنـــي- يدفعني إلى أن ألقي نفســـي في أحضان الدكتور.

صرخـــت.. وتحولّت إلـــى الباب المغلق أمامـــي أضربه بكلتا يـــدي غير عابئة بالدم المتفجر منهمـــا حتى تحول صراخي عواء كعـــواء الحيوانات - وكانت يد اللـه الرحيمة تســـمعني فامتدت يد الدكتور إليّ لتخرجني من باب القبو تفتحه زاعقة في أبي: "هل أنت مجنون؟.. سأتولى أنا تعليمها.. ســـأدخلها أرقى المدارس وأنقذني وانقذ حياتي".

هل تصدق يا روبي أن هذه البنت التي جاءت من النجع في الفيوم محمولة على رأس أمها داخل قفة هي هي البنت التي تحدثك الآن والتي دخلت مدرسة الـ"ليسيه" والتي هي نفسها ندى بنت

حامد الجنايني التي تقف كل يوم في الطابور وسط زميلاتها تردد باللغة الفرنسية نشيد المدرسة:

"صباح الخير

أيها العالم الجميل

صباح الخير

أيتها الشمس المشرقة

صباح الخير

أيتها الأحلام الطائرة"

يصفها سائق التاكسي الذي أوصلها إلى القصر لصديق له في المقهى: "ما أن لمحتها بفستانها المشمشي القصير وجسمها الملفوف تشير لي: قف حتى أطعت وما أن فاحت رائحتها المُسكِرة وهي تدخل السيارة تحمل جروًا صغيرًا محظوظًا حتى ارتبك الهواء حولي ولم أعد منتبهًا لصوت سعاد حسني الخارج من الراديو يغني للربيع بعد أن شاهدت الربيع ذاته لحمًا ودمًا.. محرومًا بشعرها الناري الحر وعينيها المتألقتين الواسعتين الحائرتين في شبابها، ثم هاتين الشفتين المليئتين بما لا يطاق من الحرارة وذاك الصدر الذي يخبئ داخله كل نعيم الدنيا.. وما أن غادرت متجهة إلى قصرها في المنصورية بالهرم حتى أسرعت أغلق كل نوافذ السيارة أحبس

رائحتها وحرارة جسدها حتى لا يتسرب منها شيء وتمددت في مقعدي مخدرًا لا أفكر في طعام أو شراب أو زوجة أو عيال رافضًا العمل بقية اليوم"

تتجول نــدى في حديقة القصر الواسـعة الممتدة تحدث الجرو الصغير الذي اشترته اليوم والذي أسمته روبي.. تعرفه على نفسها وعلــى أصدقائه الجدد من الزهور والنباتات والعصافير يتسـليان معًــا في انتظار مجئ الرجل الذي أحبتــه، هذه هي زهرة القرنفل الحمــراء يا روبي وهذه زنبقة بيضاء، وهــذه لؤلؤية، وهذا حذاء فينــوس مع أن فينوس كانت تسـير على الماء حافية، وتلك زهور مهجنة، أما هذه الزهرة جلّنار فهي زهرتي الخاصة، وأنا أحبها جدًا لأن الدكتور يســري هو الذي زرعها خصيصًا من أجلي.. أما هذه التي تنزل وتتدحرج علــى الأرض فهي العصافير.. كائنات طيبة مثلك لا تفكر إلا في الأكل.. لا تخلط بينها وبين أوراق الشجر حين تتسابق معها أمام الريح وهناك طيور أخرى - ستراها في الشتاء - حين تكون قد كبرْتَ، أظرفها أبو فصادة الذي ما أن يســمع صوت الرعد حتى ينقلب رافعًا ساقيه إلى أعلى ظنًا أن جبال السماء ستقع على الأرض فيسـتعد لصدها دفاعًا عــن أرضه وحياته، والهدهد الذي يقال أن سيدنا سليمان قد عاقبه حين تأخر عن اجتماع الطيور فأمره أن يبحث له عن منفى ومن يومها وهو تائه.. وهناك اليمامة صديقة الدكتور يسري.. و..

يفاجئها الدكتور يســري آتيًا من الخارج يسألها بصوته الحاني: "كيف حال الفراشة؟" تسرع ملهوفة تدفن وجهها في صدره تتشمم رائحته وهي تتطلع إليه بشــفتين مرتعشتين.. يلمس ذقنها مداعبًا، فتمســك يده تقبلها وتقدم له صديقها الجديــد روبي.. يرمقه بنظرة فاحصة، فيهز له ذيله كأنمــا يرد التحية، فتلفت ندى نظره إلى أن لروبي عينًا زرقاء وأخرى خضراء.

يهمس لها: "كم أنت مشرقة اليوم"

"لماذا تأخرت؟ تسأله العاشقة الصغيرة فلا يجيب

لم يكن الدكتور يسري مرحًا كعادته رغم أنه أعتقَ رقبةَ شاب اليوم من حبل المشنقة، لكنه أُقيل بعدها من عمله خبيرًا بوزارة العدل، تحول إليه بعض الحالات الخاصة بالمجرمين والقتلة لإبداء الرأي في حالتهم العقلية ساعة ارتكاب الجريمة.. وكانت الحالة التي حولت إليه أخيرًا لشاب قتل جدّته التي يعيش معها حين منعته من لقاء محبوبته وهو في طريقه إليها ثم أنكر تمامًا فعلته حين أفاق، وأبدى دهشته، إذ كيف يخنق جدته التي ربته؟ وحُوّل الشاب إلى الدكتور يسري ليبدي رأيه في قواه العقلية وقت الجريمة، وبينما أقر زميلاه أن الشاب كان في تمام عقله ساعة ارتكاب الجريمة وأنه يستحق العقاب خالفهما الدكتور يسري وكتب في تقريره أن الشاب كان خارج الزمن المعتاد في ذلك الوقت، إذ كان عقله غائبًا

في زمن العشق الخاص فكيف يحاكم بقانون الزمن العامّ؟

وما أن وصل التقرير للمحكمة حتى استند إليه المحامي طالبًا البراءة للشاب وما أن وصل الأمر لوزير الصحة بعد وزير العدل حتى طلب من الدكتور يسري أن يقدم استقالته فورًا فاستقال وكتب الوزير على ورقة الاستقالة: "يمنع نهائيًا من العمل أو الاستعانة به في أي مجال بالوزارة"

ما الذي فعلته به هذه "البنت ابنة السادسة عشر التي لا تدرى ماذا ينتظرها" وكيف سيطرت على رأسه إلى هذا الحد حتى أنه لم يعد يدري أيده هو التي كتبت ذلك التقرير أم يدها هي؟ وكيف تسللت إلى حياته حتى أربكتها هكذا؟ وحتى تسببت أنه طلق زوجته التي شككت أنها ابنته إذ تعامله كابنة مدللة فما أن يمر بالحديقة في طريقه للخروج حتى يفاجأ بالثمار تنهال عليه من أشجار الفاكهة في غير مواسمها وقبل أن تعتريه الدهشة تفاجئه ضحكتها وهي تعتلي الشجرة تصوصو له مرة كعصفورة وتهدل له مرة كيمامة أو تنونو أحيانًا كقطة.. ثم تسربت إلى أحلامه فأربكتها.. حلم ذات ليلة أنها إحدى عرائس البحر سحبته حتى سار وراءها وما أن رأت البحر حتى ألقت نفسها فيه ثم دعته للنزول وراءها وما أن همّ حتى فوجئ بنفسه وقد تحول إلى صخرة ومرة رآها في صورة فينوس ربة الجمال عارية تولد من زبد البحر كابنة لزيوس رب الأرباب،

بينما هو نفســه ذلك الرب القديم! لم يعد يعرف هل يتصرف معها كأب أم كطبيب!

لو أنه اطّلع على ما بداخل رأسها لعرف كيف تعاني في الليل وهي تتقلب على سريرها في غرفتها التي لم يدخلها أبدًا.. أنها تحلم به كرجل وتحلم بتلك اللحظة التي تمس فيها شفتاه شفتيها أو تمس شفتيها شفتاه حتى تتذوق ذلك المّس الرباني الذي تسمع عنه والذي يسري في الجسد كالموسيقى أو كالنسيم. والدكتور يدرك ذلك من نظراتها ومن رفة أهدابها ومن تلهفها على لقائه حين العودة ومخاوفها حين يغيب! بل أي نعيم تحسه الآن وهي تريح رأسها على ركبته وهما جالسان في الحديقة أمام حوض السباحة يراقبان الماء صامتين.

"أنا فـــي المكتب" قالها بصوت محايد وهـــو يقف ثم انصرف متجهًا إلى داخل القصر.

تراقبه.. صاعدًا درجات السلم لا يتعثر - طويلًا ممشوقًا داخل الترينج الرياضي الأبيض والحذاء الشبابي "الكوتشي" يعلو رأسه تاج من الشعر الأسود الناعم الطويل المفرود وتحيط عنقه سلسلة من الفضة أهدتها له "ندى" في العام الماضي في عيد ميلاده العشرين! وما أن اختفى عن عينيها حتى أخذت تضرب الأرض بقدميها في غضب طفولي.. لقد انصرف سريعًا دون أن يلحظ أصابع قدميها

الحافيتين.. لم يكن ينسى أبدا أن يتغزل فيها.. أن يشبهها بأصابع الحلوى كما اعتاد، لقد خلعت الحذاء خصيصًا لعينيه.. هو الذي لفت نظرها إلى جمال تلك الأصابع حين أخبرها أن: "أصابع قدميها لا مثيل لها إلا في أقدام الأطفال.. هذه الأصابع المتساوية لا يشذ فيها إصبع لم أرها من قبل.. كل النساء أصابع أقدامهن ملتوية بسبب الأحذية الضيقة ذات البوز الرفيع والكعب العالي، أصابع قدميك أنت كأصابع البيانو فيها موسيقى توقظ فيه الفنان"

"اليوم أكمل الخامسة عشـــر.. ألن تحتفلوا بعيد ميلادي؟ كانت أول مرة تدخل مكتبه منذ عامين تقف أمامه في مريلتها المدرســية بينما حقيبتها المعلقة إلى ظهرهــا تجعل صدرها أكثر بروزًا.. لم يرفع عينيه ولو للحظة أجاب: "ســنرى" ضايقها أنه لم ير صدرها الــذي نما في غفلة عنه فانصرفت غاضبة، ومع ذلك ففي المســاء أقامــوا لهــا عيد ميلاد فــي الحديقة دعت إليــه كل صديقاتها في المدرسة وغرست الشموع الملونة في "التورتة" الفخمة وزغردت صديقتها المقربة "مريم" ورقصت البنات، ونزل الدكتور يســري وقد ســمع الزغاريــد مغادرًا مكتبه إلى الحديقــة. تصحبه زوجته رشيدة.. رحبت به "ندى" فابتســم لها وقدمته إلى زميلاتها سعيدة فرحة: "بابا" وما أن نطقت "ندى" كلمة "بابا" وهي تشير للدكتور حتى جُن جنون زوجته فانطلقت تضرب التورتة وتطفئ الشــموع وتصرخ فيه "طلقني.. طلقني فورًا" فطلقها فورًا.

ماذا يفعل الآن في حجرة مكتبه؟ لابد أن تعرف

وفي لحظة غاضبة قررت أن تطارده فغادرت الحديقة قاصدة المكتب فتحت الباب فجأة، واندفعت تجلس على حافة المكتب تبدل ساقيها في حركة مستمرة عامدة أن تعرض أصابع قدميها - لعيني يسري وقد قررت لا أن ترضي أصابع القدمين فقط ولكن أن ترضي شفتيها أيضًا.. "قل شيئًا لأصابع الحلوى" قالت

مبتسمًا قال: "ألن تكبري؟ قالت: لا"

التفتت خلفها تلقي نظرة على مجموعة التماثيل الصغيرة المتراصة على الرف خلف المكتب تسأله عمن يكونون فأخبرها أن هؤلاء هم الذين منحوا الحياة بريقها وتحدوا الفناء. ومع أنه حدثها عنهم من قبل إلا أنها أحبت أن تشاغبه، فهي تحب أن تراه يتكلم حتى تخرجه من ذلك الصمت الذي يستغرق فيه أحيانًا وأخذ يعددهم لها:

"برومثيوس.. سارق النار" الذي سرق النار من الآلهة وأهداها للبشر فعاقبته الآلهة بالعذاب الأبدي و"الإسكندر الأكبر" الذي فتح العالم القديم والذي نصحه أرسطو أن يبني بدل أن يهدم فساهم في تعمير الأرض ببناء المدن وهذا "جاليليو" الذي هز عرش البابا والكهنة حين أعلن أن الأرض تدور بهم فزعزع مكانتهم الثابتة، وهذا "نيوتن"، وهذا "آنشتين"، وهذا "أديسون" الذي أضاء حياتنا بالكهرباء وما أن نطق الجملة الأخيرة حتى قفزت عن المكتب

وهي تصيح "وهذه ندى التي أضاءت حياتك" ثم أسرعت تحاول أن تطبق بشفتيها على شفتيه، أسرع يزم شفتيه تمامًا واضعًا كفه حاجزًا بين شفاهها وشفاهه.. وقفت تتنطط أمامه "لماذا تصدني دائمًا؟" "لماذا لا تشتاق إلي كما أشتاق إليك؟" لماذا لا تقبلني؟!

***

يحدق الرجل ذو السبعين عامًا في المرآة يرى الشعر الأبيض مختبئًا تحت الشعر الأسود المصبوغ ويرى التجاعيد التي أخفتها الكريمات تحت الجلد وذلك الحزن المرسوم عميقًا في آبار العينين.. ويرى عمره الذي قضى منه أربعين عامًا في إنقاذ حياة الآخرين، فهل سيتمكن من إنقاذ تلك الفتاة الصغيرة التي لا تدري أنها مرشّحة للموت!

قليلة هي الأعمال التي تتطلب سنوات طويلة من الدراسة والتمرين وتفرض مهارات كثيرة وترهق الأحاسيس مثل جراحة الأعصاب.. إنها تعالج أكثر أجزاء الجسم البشري دقة وغموضًا.. الدماغ والنخاع الشوكي حيث تختبئ الأورام الخبيثة وتتمدد الأوعية الدموية وتهدد مجرد زلة مبضع بالشلل أو الموت.. أما مكافأة هذه المهنة فتكمن في إنقاذ حياة الآخرين ألهذا يتحداه الموت قابعا داخل دم ندى؟

صارت "نــدى" تقتحم عليــه مكتبه كثيرًا تحمــل إليه فناجين القهــوة ـ وهي في الحقيقة تحمل رغبتها فــي قبلة ـ وضعت أمامه

الفنجان وتمددت هي -فيما بين الطفولة والأنوثة- على الشـيزلونج الأخضر تتأملـه ويتأملها وبينما يرفع فنجان القهوة ليأخذ رشـفة اقتربت منه تهمس "قهوتي أحلى" ومدت شـفتيها فأبعد شـفتيه.. لا تتركه نـدى في حاله أبدًا فهي تراقبه بدءًا من خطوات ساقيه ونبرة صوته وحتى ضربات ذراعيه في الماء في حمام السـباحة والتي تراها أحضانًا.. فقد كان خيالها يتراقص منعكسًـا في الماء وهي جالسة أمامه تشجعه وهو يغطس ويطفو.. وشيئًا فشيئًا أصبح يسـايرها في مشـاغباتها ومرحها حتى أنه حين يقوم بري أزهار الحديقة كان يسـير حافي القدمين مثلها مبـررًا ذلك بأنه "يريد أن يلمس الأرض جلدًا لجلد" إذ الحواس كلها تتوهج في الجلد فتقول له مداعبة "والشـفاه أرق أجزاء الجلد؟" فيضحك معجبًا بذكائها فتكاد تقول "وهي البوابة الأولى لكل البوابات الأخرى" لكنها تتردد فهو لا يسـمح لها حتى بنزول حمام السباحة بالمايوه وقررت أن تريه شيئًا من المخبوء

"ابتعدي يا ندى عن الخرطوم"

تلجأ ندى للحيلة والجرأة في الوصول لأهدافها فبينما يمسك الدكتور بخرطوم الماء يرش أحواض الزهور تعترض هي بجسدها مساره متحركة يمينًا ويسارًا مدعية أنها تريد أن تمسك بالماء بينما هو يتحاشى توجيه الخرطوم إليها طالبًا منها أن تبتعد مدركًا -بشكل ما مرماها- يحار خرطوم الماء بين الاثنين.. يعلو بالخرطوم إلى

ما فوق راسها ويهبط به إلى أسفل قدميها محاذرًا الاقتراب من المناطق المحظورة.. لكنها تعمدت ذات يوم أن يقف صدرها في مسار الخرطوم فابتلت البلوزة والتصقت باللحم ولم تكن تحتها حمالة صدر فشفّ النسيج عن الرمانتين الخبيئتين في المملكة المحرمة قبل أن تسرع هاربة.

كانت ندى تحب أباها قبل رحيله وتشفق عليه بشدة بسبب أمراضه وأحزانه خاصة بعد أن يعود من عملية الغسيل الكلوي التي يقوم بها في المستشــفى الحكومي لثلاث مرات كل أسبوع يعود على أثرها مجهدًا يتمدد بقية اليوم تحت إحدى أشــجار الحديقة ضعيفًا متخاذلاً تحمل إليه الطعام وتســمع منه كيف يتم هذا الغسيل لساعات تحت الأجهزة وعرفت أنه يحتاج الــدم وأن الدم لا يكون أحيانًا متوافرًا بالشكل الكافي لكل المرضى فيموتون وقررت ندى أن تتبرع بجزء من دمها إنقاذًا لهؤلاء البؤســاء ومســاهمة في حياة أبيها.. فذهبت بنفسها إلى إحدى المستشــفيات وأبدت رغبتها في التبرع دون أي مقابل وتبرعت بلتر كامل وعادت في منتهى السعادة تحكي للدكتور يســري ما قامت به فأبدى فرحه بها وبتضحيتها وسعيها إلى إسعاد الآخرين ويومها قال لها: "إن السعادة الحقيقية هي إسعاد الآخرين، وأن مكافأة العمل الحســن هي القيام به" لكنــه فوجئ فيما بعد أن هنــاك عددًا مــن المتبرعين يومها في تلك المستشــفى قد أصيبوا بمرض نقص المناعة المكتسبة "إيدز" الخطير أثناء عملية نقل الدم

نتيجة تلوث إحدى الحقن بالفيروس القاتل - هكذا عرف من إحدى صحف المعارضة التي نشرت أسـماء الذين أصيبوا ظلمًا بعد أن أوقعهم الإهمال -لا الحظ- في ذلك الحدث وقرأ ضمن الأسماء اسم ندى مشـارًا إليه بالحروف الثلاثة "ن.ح.ر" فأسرع إلى المستشفى واطلع على كشـوف المتبرعين وقرأ اسـمها كاملا فجن جنونه.. لقد نقلوا إليها الموت بينما هي تسـعى إلى المساهمة في إطالة حياة الآخرين، وما أن بدأ التحقيق السـري حتـى حاولوا الوصول إلى المصابين وكانوا سـتة لعزلهم بعيدًا عـن الآخرين فهذا المرض لا عـلاج له حتى الآن.. واهتدوا إلى نـدى وحاولوا أخذها لعزلها فأسرع الدكتور يسري -الذي كان يتوقع ذلك- يخفيها ويكتب تعهدا بمسئوليته عن حياتها وفكر الدكتور في رفع قضية على المستشفى وعلى وزارة الصحة سـعيًا إلى إقالة الوزير والمطالبة بتعويض.. ولكن أي تعويض يمكن أن يعوض الحياة لفتاة في مقتبل العمر.. إن هذا المرض يضرب جهاز المناعة في الجسـم ليقضي عليه.. ذلك الجهاز الذي تكون عبر مئات الآلاف بل الملايين من السنين ليكون جيشًا مرابضًا يحمي الجسم من الأمراض.. فإن أصيب هذا الجهاز أو تلف لأي سـبب أصبح الجسم مباحًا لأي عدوان مرضي داخلي أو خارجي دون أي دفاع لتكون النتيجة الوحيدة هي الموت المؤكد بعـد رحلة عذاب. وهذا القاتل "الإيـدز" ينتقل عن طريق الجنس بدءًا من القبلة العميقة! وكما أن ندى لا تعرف مصيرها، فهو أيضًا

لا يعرف مصيره.. فقد أصيب بالزهايمر - داء النسيان - الذي يطفئ مصابيح الذاكرة مصباحًا وراء مصباح حتى يصل إلى الإعتام التام فالموت، إنه المصير المشترك بينهما. والعدو المشترك.

تناول قرصًا منومًا وغادر حجرة مكتبه إلى غرفة نومه يحاول أن ينام هاربًا من حصار الأفكار.. وما أن أضاء النور حتى فوجئ به متمددًا على السرير - كما تخيله تمامًا- شبحًا قبيحًا دميم الخلقة ينفث هوءًا باردًا- حاول الهرب فالتصقت قدماه بالأرض، حاول أن يستغيث بندى فانحبس صوته ولم يزد الموت على أن قال له من خلال فحيحه المريك: ".. لا مفر.. إنني أحاصرك وحاضر فيك منذ كنت طفلًا.. كنت حاضرًا في الذبابة التي دفنت أباك حيًا.. وفي لهب النار الذي سحب ابنك من الشرفة.. وفي رعشة السمكة التي خنقت صديقك.. والآن أقيم داخل رأسك وداخل جسد الصغيرة فماذا أنت فاعل لها أو لك؟

زعق يسري ينادي: "ندى" مغادرًا المكان إلى حجرة المكتب يرتمي على الشيزلونج يصيح بندى التي أسرعت إليه "ضميني" فأخذت تضمه إلى صدرها لكن جسده كان باردا كما لو كان قد غادره الدم أخذت تدلك جبهته.. "ماذا حدث؟"

"لا تتركيني"

"لن أتركك يا حبيبي"

بقى في حضنها برهة طويلة حتى أعادت إليه شيئًا من الدفء فابتسم همست: "هل تحتاجني؟".. لم يرد

تمددت ندى على الشيزلونج بينما غاب هو داخل عمره.

يسري الراوي

في الثالثة من عمره هاجم وباء الكوليرا كل أقاليم مصر وقضى علـــى مئـــات الآلاف.. كان أبوه طبيبًا ســـاهم فـــي محاولة علاج المئات.. لكنه أصيـــب.. انتقلت إليه العدوى من ذبابة.. ولما أحس القيئ والإسهال أبلغ عن نفسه خوفًا من أن تنتقل العدوى لابنه، لكن رجال الصحة في فوضى الذعر والجهل والأوامر الصارمة -حيث لا مصل ولا علاج- حملوا الأب الطبيب إلى خارج المدينة وكمروه في الجير الحي ليشـــوى حيًا! ولحق به جـــده عالم الأزهر الكبير الذي لم يتحمل الصدمة، كان هذا أول لقاء ليســـري بالموت ثم حين تزوج وأصبح بدوره طبيبًا وســـكن القصر مع زوجته التي أنجبت بعد سن اليأس -في معجزة- ابنها الوحيد هشام الذي أسرع يطلُ من شرفة القصر بالدور الأخير يشاهد لاعب النار خارج السور يبتلع النار وينفثها خصيصًا له أملًا في العطاء.. حتى انزلق وســـقط في الحديقة يصارع الموت فأســـرع به الأب تتبعه صرخات الأم إلى المستشـــفى وقاد بنفسه مجموعة الجراحين يحاولون إسعاف الطفل لكن يده ارتعشـــت ومات الطفل وبعدها هجر الجراحة وتحول إلى

الطب النفسي.. وبعدها لم يعد هناك أي تواصل نفسي أو جسدي أو حتى كلام بين الدكتور يسري وزوجته رشيدة، فقد اعتبرته مسئولًا عن قتل الطفل.. وســـافر إلى الخليج ليعمل وينســـى، إلى أن دعاه صديقه الوحيد الأقرب "تيم" إلى حفل بسفارة هولندا حيث يتناولون فيه نوعًا من الســـمك النيئ الطازج كطقس في الأعياد وما أن هلل "تيم" العاشق يستعرض أمام خطيبته المعشوقة فاتحًا فمه ليسقط فيه السمكة النيئة الطازجة حتى انحشرت في حلقه ولم يصارع الموت أكثر من دقيقتين وسط الصراخ ليسقط على صدر خطيبته ميتًا!

إنه الموت يتبعه في كل مكان متخفيًا كأنه قناص محترف يختار بدقة لحظات الإعدام.

وكما لو كان في غيبوبة ثم أفاق انتبه الدكتور يسري لنفسه وتذكر أن ندى كانت بجواره على الشيزلونج هنا في حجرة المكتب منذ قليل ولم يشعر بانصرافها بينما كانت هي في ذلك الوقت تقف في الكوريدور -لا يراها- تحمل حقيبة ملابسها وقد قررت مغادرة القصر بلا عودة. "لابد أن أرحل" تضرب الأرض بقدميها وتزمجر فقد انتظرت مجيئه في غرفتها بعد أن أبرزت له صدرها في الحديقة فلم يذهب وحين استدعاها إلى حجرته ظننت أنه سيطيب خاطرها فإذا به يشرد بعيدًا. "لابد أن أرحل".. وما أن بدأت تخطو نحو السلالم بكامل غضبها لتغادر القصر حتى فوجئت بيده تمسكها من الخلف:

"إلى أين؟"

أبعدت يده بشراسة قطة:

"سأذهب لأعمل خادمة في أي بيت أصرف على نفسي وأتولى رعاية نفسي بنفسي وإهانة نفسي بنفسي" أدرك لحظتها أنه قد أهانها دون قصد فأخذ يلثم يدها معتذرًا: قالت: "لماذا إذًا تجاهلتني وأنا على الشيزلونج؟"

"لم أكن أنا" صدقيني لم أكن أنا.. إنه "هو"

كانت تريد أن تصدقه: فلم تسأله من "هو"؟ وطلب منها أن تذهب لغرفتها وتنام

قالت بصوت طفولي متصالح:

"هل ستأتي لتغطيني؟"

قال: "نعم" ولم يذهب.

***

صفات كثيرة أوقعت ندى في حبه حتى درجة العشق فعلاوة على رعايته لها منذ طفولتها المبكرة إلا أنه كان واثقًا بنفسه مبتسمًا يحادثها.. على عكس والدها الراحل الذي لا تذكر أنه ابتسم في وجهها أبدًا- إلى أن حدثت القفزة المفاجئة في جسدها وخيالها معًا

والتي لا تدري كيف انتبهت إلى أن الدكتور يسري رجل.. يتحرك أمامها فتتحرك في مجاله بغير تحكم لا تدري كيف فهو أمامها في القصر إما سائرًا على الأرض أو محلقًا في السماء! أما الدكتور يسري الذي يعرف أحاسيس ندى جيدًا كطبيب لا يعرف ماذا يفعل.. في أحدث النظريات يخبره العلم أن الحياة بدأت على الأرض منذ مليارات السنين من خلية أولى تكونت في مياه البحار نتيجة مليارات المحاولات من تصادم الأمواج حتى خرجت تلك الخلية الحية وتطورت عبر ملايين السنين كذلك ولدت فينوس كاملة من زبد البحر أيضًا؟ من منهما يصدق وكلاهما تخمين؟!

يرتبك فكر الدكتور يسري ويجهده التفكير فيشرب قهوته ويلتقط تمثال فينوس العاجي الصغير من أمامه على المكتب ويخفيه في الدرج.. في عمق الدرج كأنه يتخلص من وسوسة الأسطورة.. وبخطى سريعة نهض يسري الراوي عن مكتبه هابطًا السلالم إلى معمله الصغير بحديقة القصر والذي لا يدخله غيره- وفتح ثلاجة خاصة وتناول منها قنينة بنية متوسطة الحجم حرص على احتضانها بقوة! وعاد إلى المكتب ووضع القنينة بحرص عليه ثم اتجه إلى الخزانة الحديدية ورتب أرقام مفتاحها السرية ففتحت وأخرج منها بعض الأوراق ثم أغلقها وعاد ثانية يجلس إلى المكتب يتصفح الأوراق الدالة على تفاصيل الدواء الذي صنعه يتحدى به الموت.

بدأت المسألة بالملاحظة العابرة كما يحدث عادة في كثير من الاكتشافات إذ أتيح له أن يحضر تشريح جثة صديقه الحميم "تيم" ولاحظ يومها وجود خلايا غريبة في دمه ليست شبيهة بأي من خلايا الجسم المعروفة ففحصها ودوّن ملاحظته عنها في أوراقه الخاصة وكتب أمام تلك الخلايا الجديدة علامة (×) ثم أتيح له أن يراها بنفس الشكل في دم ضحايا آخرين قتلهم الموت غيلة ولاحظ أنها لا تظهر إلا في حالات الموت المفاجئ لأناس عاشقين الحياة فافترض الدكتور يسري أن الجسم يفرزها في اللحظات الأخيرة لمواجهة الموت كآخر وسائل الدفاع عن الحياة ثم تأكد له ذلك حين وقع ذلك الحادث الأليم أمامه فقد أتيح له أن يذهب إلى السيرك ذات يوم وكانت اللعبة التي تتم أمامه بطلاها شاب وفتاة جمع بينهما الحب العالي حتى العشق وكان عليهما كلاعبين أن يتطوحا في الهواء متخلين عن الحلقات التي يمسكان بها ليلتقيا في منتصف المسافة يتلقف كل منهما يد الآخر حيث يُلبس الشاب فتاته دبلة الزواج وهما في الهواء لحظة التشابك ليكون الجمهور هو الشاهد على هذا القران ولكن الموت كان هو الشاهد ففي تلك اللحظة أفلتت الأيدي وهوى العاشقان إلى الأرض.

طلب الدكتور يسري أن يحضر تشريح الجثتين ووجد في دمهما ما كان يتوقعه.. نفس الخلايا (×) وعند ذلك تأكدت ملاحظاته وهي أن هذه الخلايا لا توجد إلا في اللحظات الأخيرة وقبل الموت مباشرة

وأضاف أنها لا تظهر إلا في دم العاشقين.. أي أن العشق العالي شرط أساسي لظهورها كأقصى سلاح للدفاع عن الوجود في أكمل وأجمل صُورِه وهنا أطلق عليها الدكتور اسم "الأجسام أو الخلايا الحرة" تمييزا لها عن تلك الأجسام الأخرى المتخصصة التي تتولد ضد مرض معين..

اعتمد الدكتور يسري على تلك الأجسام الحرة في صنع دوائه الجديد الذي سيواجه به الموت وسماه "المزيج" معتبرا أن الحب والعلم معا قد امتزجا فيه.

هل سينجح هذا الدواء في إبعاد شبح الموت عن ندى؟

وقرر أن يجربه أوّلا واختار حامد الجنايني والد ندى المريض للتجربة.

كان حامد يجلس تحت شجرة المانجو يستظل بها مجهدًا مرهقًا يلتقط أنفاسه بصعوبة، فقد كان عائدًا من جلسة غسيل كلوي، حاول حامد أن يقف احترامًا للدكتور فأجلسه، وراح يتأمله.. كان بؤس العالم يطل من عينيه.. فقال الدكتور لنفسه: "هذا نموذج مثالي لتجربة المزيج، ففيه تجتمع كل آلام البشر وكل جنود الموت، المرض والألم والمعاناة والخوف من المستقبل والحزن والغربة والوحشة، علاوة على الأسى الكامن داخله منذ فقد الابن وحتى رحيل الزوجة"، قد يمنحه الدواء الشفاء التام. سحب الدكتور جرعة من الزجاجة وأخبره أنها

ستخلصه من كل أحزان الماضي وآلام الحاضر ومخاوف المستقبل وأن الدواء سريع المفعول لا يكاد يصل إلى الدم حتى يظهر أثره.. وعلى الفور عرى حامد ذراعه فحقنه الدكتور وما أن وصل المزيج إلى دمه حتى ارتعش الرجل بقوة وجحظت عيناه وتدلى لسانه وطفح من شدقيه الزبد وتمدد على الأرض بلا حراك. أدرك الدكتور من فوره أنه مات. وبعدها دفن حامد بلا شكوك.

عادت ندى تدخل إلى يسري كقطة أليفة.. تحبك الروب الطويل على صدرها والإيشارب على شعرها تتجه من فورها لتجلس على الشيزلونج بينما هو يتأملها في زيها المحتشم غير المسبوق ترتديه لأول مرة يحاول أن يعرف السبب

"عندي أرق".. قالت.

"وأنا عندي عمل" قال.

وكأنها لم تسمع ما قال عادت تضم الروب على ساقيها والإيشارب على شعرها فقد قررت ألا تبارح المكان دون أن تحصل على حقها كأنثى من الرجل الذي أوقعها في حبه. كانت قد فكرت وهي وحدها تنتظره في السرير فيما فعلته.. هل أخطأت حين تعرضت لخرطوم الماء في يده، وعرضت صدرها لعينيه؟ هي لا تعرف من الرجال إلا أباها الراحل ومن بعده هذا الرجل - أما أبوها فكان رجلًا غامضًا يغلق صدره على ما فيه ويغلق فمه إلا على طلب الطعام ولم تتعلم

منه شيئًا وأما الدكتور يسري فهو بالنسبة لها رجل غامض. هي لا تعرف ما في قلبه ولا تعرف ما في رأسه.. وفكرت أن يكون من النوع الذي لا يغريه إلا المرأة الغامضة؟ المرأة المخبأة تحت الملابس الطويلة تبقى جسدها مجهولًا في الخفاء حتى تتيح لخيال الرجل فرصة أن يعريها هو بنفسه كي يحس بكامل النشوة؟ ربما.. فقد خلقت المرأة عارية أصلًا ثم غطاها الرجل تدريجيًا فيما بعد وساعدته ليعود يعريها بيديه مرة أخرى وعلى مهل، لقد أخطأت إذًا حين عرت صدرها أمام خرطوم الماء، لكن ها هي قد لبست له روبًا طويلًا يكاد يخفيها من رقبتها وحتى كعوب رجليها تحبكه على صدرها حتى ليكاد يخنقها لعله يرضى.

نهضت عن الشيزلونج وسارت إلى المكتب حيث يجلس ومدت ذراعها فاردة يدها تطلب كفه كأنما تطلب إحساسًا فمد يده إليها فجذبتها وقبلتها "لماذا أنت حزين؟"

رد عليها بأنه القلق وليس الحزن فعادت تسأله: "ولماذا القلق؟" قال: "الوعي" ولما ظلت تسأل وتتلقى إجابات مختصرة فتحت كفه وأراحت خدها فيها

"أريد أن أبقى هكذا في ذلك العش"

مد يده الطليقة يسرّح شعرها فأغمضت عينيها وغمغمت نصف نعسانة: "حين كانت أمي تداعب شعري وأنا طفلة كنت أنام"

ثم راحت تنظر إلى قنينة المزيج

"أتشرب الخمر من أجلي؟"

رد: "ما في الزجاجة دواء"

"أانت مريض؟" قال: "كلنا مرضى"

قالت: "أنــا مريضـة جدًا" انتابه الذعر للحظة.. هل أطلعها أحد على حقيقة مرضها؟ لكن ســريعًا ما صحح كلامُها فهمَه الخاطئ: "أنا مريضـة بحبك"

لما دخلت إليه كانت لديها الرغبة أن يحتويها وأن يتماسا جسدًا لجسد.. الآن هي فقط تريد حنانًا هو أيضًا تتضارب الأحاسيس داخله، يحس أنه يتحمل مسئوليتها كاملة كأنما هو مسئول عن وجودها وأن عليه رعايتها وفرحها.. يحاول أن يبعد عن رأسه مسئولية موت أبيها بأن يجعل لموته معنى كجندي ضحى في حرب مشروعة..

قالت ندى وهي تغادر الحجرة: "هل ستأتي لتغطيني؟" قال "نعم" ولم يذهب.

***

حين عادت إلى غرفتها لم تنم.. ظلت ساهرة تنتظره ولم يأت.. وسهر معها شيطانها يوسوس لها فنهضت عن السرير تقف أمام

المرآة نافرة الأعصاب: إلام يسعى هذا الرجل؟ أيريد أن يفقدها ثقتها بنفسها أم انه هو الذي فقد الثقة بنفسه مصرًا أن يعاملها كطفلة وأن ينظر لنفسه كعجوز!

ستـرحل هذه المرة ولن تعود.. ارتدت ملابسها وحملت حقيبة التجـوال واندفعت خارجة إلى الكوريدور ثم راحت تقفز السـلالم إلى الحديقة تعبرها نحو البـاب الخارجي دون حتى أن تلتفت إلى "روبـي" الذي راح ينبح خلفها عاليًا.. كان النباح أعلى من المعتاد فتنبه الدكتور أن هناك شيئًا ما فذهب يطمئن على ندى أولًا.. وقف أمام باب حجرتها يتصنت فلم يسمع صوت تنفسها كما اعتاد. طلبها في الموبايل فوجده مغلقًا سـمح لنفسه أن يطل من فتحة الباب إلى سريرها فلم يجدها أسـرع إلى الحمام فوجده مظلما فاتجه للمطبخ فلم يقابله غير الصمت فتوقف للحظة يحاول أن يصل إلى تفسير.. كان صوت نباح روبي يأتيه من الحديقة مسـتمرًا نزل إلى الحديقة يتجـول فيها فلم يجد أحدًا فأخذ ينادي دون جدوى فهاجمته مخاوف الليل أن تكون ندى قد غادرت القصر؟ أسـرع إلى الباب الرئيسي تسبقه دقات قلبه ونادى على "عبده البواب" فاستيقظ وسأله لتوه عن ندى هل خرجت؟ رد الرجل بهدوء.. "نعم منذ قليل قالتْ إنها ذاهبة لأبيها وأمها في الفيوم" أمسك الدكتور بكتفيه يكاد يفصلهما "أبوها وأمها ماتـا" رد الرجل مقدرًا انفعال صاحب القصر "ظننت أنهما جاءا لها في المنام يطلبان الزيارة فلبَت" طار الدكتور يسري مستقلًا

تاكسي إلى محطة الجيزة ليلحق بالقطار وحين وصل كان القطار قد غادر المحطة منذ قليل.. لن يتمكن من اللحاق بها مهما فعل، اقترب منه عامل النظافة حين رآه مرتبكًا يسأله عمن يبحث فأخبره أنها ابنته ووصفها له فأشار العامل إلى عدد من المناديل الورقية -كان في طريقه لكنسها- "كانت تجلس هنا وكانت تبكي" وقد لفتت نظره كثرة المناديل الورقية والدموع، اتجه يسري إلى المناديل والتقطها ودسها في جيبه دون وعي.. وأخذ عقله يفكر بطريقة غير عادية ثم اتجه إلى مكتب ناظر المحطة وأبلغ عنها يتهمها بالسرقة طالبًا سرعة القبض عليها وهى في القطار قبل أن تغادره وبالفعل تمت الاتصالات وقبض عليها وأعادوها إلى القاهرة واستدعوه لعمل المحضر فذهب إلى قسم الشرطة منهارا وقدم نفسه لأمين الشرطة الذي عرفه ووقف يرحب به ثم أحضروها من الحجز منكوشة الشعر ممزقة الملابس - حيث حاولت إحدى النساء المنحرفات الاعتداء عليها.. وما أن رأت "ندى" الدكتور حتى أخذت تصرخ "لم أسرق شيئا.. هو الذي سرقني" ثم حولت وجهها إلى الدكتور مباشرة تواصل صراخها: "قل لهم ماذا سرقت منك؟"

خفض الدكتور رأسه ولم ينطق.. ففي تلك اللحظة أدرك أنه يحبها.

وفي التاكسي لم ينظر أيهما للآخر.. وفي الحديقة زفهما روبي

حتّى السلالم وفي الكوريدور -فيما بين غرفتيهما- توقفا يتبادلان النظرات العاتبة ثم أسرع قاصدًا غرفته فجذبته من يده فأشاح عنها ودفعها برفق إلى داخل غرفتها وسحب الباب ففوجئ بها تعود إليه تعطيه المفتاح ليغلقه عليها فلم يتحرك فارتمت عليه بكل ثقلها تحاول احتضانه فتحرك هاربًا إلى حجرته بينما تمددت هي على الأرض تنتابها نوبة من بكاء لا يتوقف وظلت تبكي وترتعش إلى أن أحست بيده الحانية قرب الفجر تغطيها فنامت.

***

عايش العريان

هب "عايش العريان" قبل الفجر فزعًا.. أحس بحركة غير عادية جوار برميله الذي يعيش فيه منذ أكثر من عشرين عامًا لا يبرحه إلا لكي يقضي حاجته في الصحراء القريبة أو يستحم كخلق اللـه..

أطل بنصف عين يستكشف الصوت الذي سمعه فلم يجد سوى الضباب ما يزال يتسكع قريبًا من الأرض.. هو لا يرى سببًا لأن يفتح عينيه في هذا الوقت المبكر بل لا يرى أي داع لأن يخرج من النوم إلى اليقظة أو من عالمه المحدود إلى أي عالم آخر:

"ولماذا يضع حدًا بين الليل والنهار أو يخرج إلى عالم الناس طالما أن الطعام يأتيه معلبًا كاشهى ما يكون الطعام والماء معبأ داخل زجاجات بلاستيكية مغلقة محمولًا إليه حتى برميله، هذا غير العصائر مختلفة الأشكال والطعوم، لا يضايقه إلا هؤلاء الرجال الذين يصحبون النساء يحرسونهن كأنما يعرفون أنه بشر وأنه رجل محروم.. يقول لنفسه: "أنا مجرد رجل كسول هارب منذ أكثر من عشرين عامًا إلى هذا المكان المعزول ينظر الآخرون إليه على

أنه متسول او زاهد "مع أني لا أمد يدي لأحد" هم الذين يغادرون سياراتهم الطائرة على الطريق الصحراوي السريع القريب بين القاهرة -التي لم يرها أبدًا- والإسكندرية التي أحلم ببحرها الواسع ونسائها المستحمات العاريات الكاسيات".

يقبع عايش داخل برميل واسع مدهون من خارجه باللون الأخضر ومنقوش على الصاج آية من آيات الشكر والعرفان "**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي**" كتبها بخط يده فهو تعلم في طفولته فك الخط في كُتّاب الشيخ مصباح.

فجأة تحول الصوت جواره إلى خبطات على جدار البرميل ينبهه، فهب عايش -الذي كان سيعاود النوم- فاتحًا عينيه موجهًا طرف شمسيته المدببة -كحربة- تجاه مصدر الصوت ليجد برميلًا آخر إلى جواره مقلوبًا يجلس فوقه رجل غريب يتفحصه باهتمام، لا يبدو أنه متسول، فليست هناك علامات ظاهرة. كان الدكتور يسري قد راقب ساكن البرميل هذا لفترة طويلة أثناء مروره بعربته بالطريق الصحراوي.. وكان أحيانا ينزل إليه يعاينه عن قرب دون أن يحدثه ورأى أنه في سن مناسبة لإجراء الاختبار فاختاره كعينة لتجربة الدواء.. كان الرجل في حوالي الأربعين.. صحته جيدة ومعزول عن الصراعات والهموم فاعتبره الدكتور "عينة خام" لا تحتلها أي فئة من جنود الموت كالقلق أو التوتر او الاكتئاب ثم إنه

كما يبدو من عزلته ليس له أهل يسألون عنه في حال فشل التجربة فموته شيء عادي فكم ضحى تاريخ العلم بالآلاف في سبيل سعادة الإنسان وسعيه الدائم نحو الخلود. يقول عايش لنفسه لا يمكن أن يكون هذا الغريب متسولاً مثله فجلبابه نظيف وشبه حريري، وذقنه حليقة براقة، وشعره أسود فاحم رغم أنه عجوز يقترب من السبعين وحواجبه مرفوعة كما لو كان في حالة دهشة دائمة أو ربما تكون محاولة يائسة منه لأن يبصر فنظارته السوداء تدل على أنه أعمى. من يكون هذا المتطفل وكيف عرف الطريق إليه وهو كفيف؟ كيف عبر طريق السيارات المسرعة بغير عصا أو مرشد؟ وماذا يريد؟ ظن عايش - الذي ما يزال نصف نائم نصف واع أن هذا الغريب ربما يكون مرسلًا من الشيخ "مصباح" شيخه القديم في الكُتّاب حين كان طفلًا في القرية قبل مشوار الهروب منذ عشرين عامًا أو يزيد؟ لقد غادر القرية ربما وهو في الخامسة عشر بينما الآن يقترب من الأربعين -كما يظن- فهل ما يزال الشيخ مصباح يذكره حتى يرسل إليه رسولًا؟ أم تراهم توصلوا بعد طول السنين أن له أبًا، وأن هذا الأب قد توفاه الله أخيرًا معترفًا في لحظات الحشرجة أنه ابنه فأوصى له بشيء من الأرض أو المال وما جاء هذا الغريب إلا ليعلمه بالنبأ السعيد، بل ربما يكون هذا الغريب هو نفسه ذلك الأب المجهول اهتدى إليه بعد بحث طويل.. وتذكر عايش أنه رأى هذا الرجل من قبل ولم يعط الأمر أهمية.. وها هو الآن يجاوره..

وما أن هم عايش ان يساله اي الرجال هو حتى فوجئ بالآخر يسبقه في السؤال: "Who are you?" من أنت؟ انتفض عايش واقفًا داخل البرميل ملقيًا بالشمسية هامًا أن يطلق ساقيه للريح تجاه الصحراء مذعورًا من ذلك المجهول الذي يكلمه بلغة مجهولة! لكن يد الغريب كانت أسرع، جذبته من جلبابه بقوة لا تتناسب أبدًا مع سنه.. تجمد عايش في مكانه وأحس بقدميه تفكران أن تنغرزا في قعر البرميل تخفيه تحت الأرض، لم يسبق أن ساله احد او سأل نفسه هو سؤالًا كهذا.. من أنت؟ أيقول له أنه متسول أم زاهد أم كسول؟ هو الثلاثة معًا. متسول لكنه لا يمد يده.. زاهد إذ قضى عمره لم يقرب امرأة منذ سكن البرميل.. كسول؟ ربما كانت هذه الصفة الأخيرة هي الأقرب لحالته، فقد آوى إلى هذا المكان لا يبرحه منذ كان مطاردًا بفعلته الشنعاء.. فكر أن يقول للرجل الغريب إنه متسول ويريح نفسه، ولكن هل سيصدقه؟ وهل هناك متسول يستحم بالمياه المعدنية ولا يأكل إلا اللحوم، ويتعطر بتلك العطور الغامضة التي ترشها عليه بعض النساء المحسنات دون أن يدركن أنه يترك رائحة عرقه النفاذة خصيصًا لهن راغبًا أن تنفذ إلى أماكن الأنوثة الخفية آملًا في زيارة إحداهن ليلًا حيث ينفرد بها في عمق الصحراء لا يهدأ ولا يستريح لا يراهما إلاّ القمر

"رائحتك كريهة.. هل أنت ميت؟"

قالها الغريب كما لو كان ينبهه إلى ســـبب عزوف النساء عنه..

ربما كان ميتًا بالفعل وهو لا يدري وما هذا البرميل سوى قبره، صاح عايش فجأة داخل جلبابه كأنه يدافع عن نفسه ولكن بصوت غير مسموع: "وما ذنبي أنا؟ الشيخ مصباح كان يؤكد لنا كل يوم ونحن أطفال -إن المرأة عورة- كل جسدها عورة من أول الشعر وحتى أظافر القدمين وأن الزنا يتم بالعين واللمس والسمع والشم والعقل.. مجرد التفكير فيها أو النظر إليها حرام.. حتى كدنا نتمنى لو أنا كنا قد ولدنا عميانًا حتى يرضى الله عنّا.. وماذا كان يمكن أن أفعل بطبيعتي النارية حين هاجمني شيطانها في سن البلوغ؟ لم أجد أمامي سوى إناث الحمير الصغار والعنزات الشاردات، إلى أن ضبطت ملتحمًا مع تلك العنزة المشئومة التي سحبتني إلى الشارع وأنا في الذروة وكان ما كان، زهدت التعليم باكرًا وصعت في القرية يستخدمني الجميع، هذا مقابل كوزين ذرة، وذلك مقابل وجبة جبن قديم، وثالث مقابل قفطان ملبوس.. أجمع أحيانًا لطع دودة القطن مع الصبية، وأحيانًا أشارك في حمل حزم الحطب حتى وصل بي الأمر إلى تبطيط أقراص الجلة، أسير خلف البهيمة أجمع روث البقر والجاموس في القصعة، إذ كانت تلك الأقراص حين تجف تسمح لي بالولوج إلى أحواش البيوت حيث النساء والبنات جالسات أمام الأفران المشتعلة يدفعن بالأقراص إلى النار.. خدودهن الحمراء ملتهبة يكاد يبُك منها الدم بفعل الوهج والحرارة.. مندمجات في الخبيز غافلات عن أفخاذهن المكشوفة، تلك الأفخاذ

الملتهبــــة التـــي دفعتني أن أنزع قعر الســـيالة - في جلبابي - حتى أعطي ليدي مســارًا ســـالكًا للوصول إلى فرنـــي الخاص- لم يكن يعنيني الســن أو الشكل.. عجوزًا.. صبية او حتى طفلة، فبينما هن منشغلات غير منتبهات أكون أنا في ذروة الانتباه.. فرنًا أمام فرن.. حتى إذا فضحتني الرعشــة أجري إلى الترعة أطفئ فيها جســدي مــن بقايا الحريق ولــم يطل النعيم فقد انتبه الرجال إلى ســرحانه الطويل أمام الأفران وأنفاسه المتلاحقة وجريه تجاه الترعة فحرموا عليه الدخول إلى أماكن الحريم.. كما فضحه لباسه الوحيد المبلول المنشــور دائمًا على فرع شــجرة الكافور لا يجف أبدًا، حاصروه وســمحوا له بالعمل فقط في الزرايب مع البهائم، لم ييأس فطبيعته تقوده إلى حمارة صغيرة لم تجرب بعد ذكور الحمير أو بقرة ناعسة يتخيلها عذراء إلى أن ضبــط ملتحمًا مع تلك العنزة العصبية التي سحبتنه إلى الطريق العام وانهال عليه الطوب من الرجال والنساء والأطفال، قالوا إنه شيطان ابن زنا.. أولم تلفظه امرأة مجهولة على كوم سباخ قذر وهو بعد قطعة لحم حمراء؟ وهل قبلت امرأة واحدة إرضاعه ولو لوجه اللـه؟ لقد أرضعوه لبن عنزة! ولعل هذا ســبب عشــقه -فيما بعد- للعنزات، كانوا سيسمونه "دودة" بحكم وجوده على كوم سباخ.. لكن الشيخ مصباح شيخه في الكتاب سماه "عايش العريان" لأنه عاش ولأنه عريان

صاح فيه الدكتور يسري الراوي يخرجه من صمته: "كم مر عليك هنا؟"

قال عايش: "أكثر من عشرين عامًا.. ربما خمسة وعشرون" وعرف الدكتور أن لا أهل له وعرفه هو أنه لا يستمع للراديو فماذا يمكن أن أسمع منه؟ ما يعنيني فقط هو هذا المكان الذي أقبع فيه.. كيف أستبقيه بعد أن زحفت عليه القرى السياحية والمزارع الخاصة من كل ناحية حتى أني ظللت أنتقل من مكان لآخر بحثًا عن موضع إلى أن استقر بي المقام هنا.. وحين حاول أحدهم أن يستخدمني كخفير على أرضه هنا في الصحراء - إلى أن يعود من الخليج رفضت فأنا لا اريد أن أكون مسئولًا عن أي شيء ولا حتى عن نفسي!

صدّر له الدكتور يسري نظرة إعجاب فاطمأن إليه عايش قليلًا.. وحين سأله الدكتور ألا يخاف من وجوده وحده في هذا المكان؟

"ولماذا أخاف؟ ليس هناك ما أخاف منه أو عليه؟"

"هذا الرجل هو العينة المطلوبة تمامًا"

أحس عايش العريان بشـــيء من الألفـــة بينه وبين جاره الجديد حين وجده يبتسـم له فســـأله مازحًا إن كان يفكــر أن يزوجه ابنته فاســـتنتج الدكتور أنه يفتقد المرأة وأمســك به يسأله إن كان يؤمن بالجن

رد عايش مرتعشًا وهو يتمتم ببعض الآيات:

"الجـــن مذكور في القرآن" وعلى الفـــور خلع الدكتور نظارته وحدق فيه:

"ها أنت ترى واحدًا منهم أمامك"

بصوت لا تـــكاد تبين حروفه ودون تنفس همس عايش: "وماذا تريد مني بسم اللـه الرحمن الرحيم؟"

أخبره الدكتور أنه يريد أن يخرجه من هذا البرميل الضيق إلى عالـــم الحياة الواســـع ثم طلب من عايش أن يعـــري ذراعه ليحقنه بمصل الشـــباب الدائم اســـتعدادًا للمرأة فعرّى عايش ذراعه فحقنه الدكتور بالمرض لا بالدواء صائحا فيه:

"اخرج من التابوت وابدأ الحياة"

"هـــي صيحة واحدة لا غير تبعتهـــا قفزة مني في الهواء طرت بعدها أجـــري متوغلًا في عمق الصحـــراء جلبابي في فمي وهو يجـــري ورائي يحاول أن يقنعني أنه حكيـــم وأنه يعمل لمصلحتي ولكـــن هيهات أن أصدق فلا هذا الصوت الذي يطلب مني أن أقف ولا هاتيـــن الرجلين اللتين تطيران ورائي بهذه الســـرعة وفي هذه السن يمكن أن تكون لإنسي؟!

*

فوجئ ســكان الشارع الكبير بحي إمبابة الشعبي وهم خارجون من صلاة الفجر بصوت أجش يعلو مرددًا مواويل لم يســمعوا بها من قبــل.. ألحانها قديمة معروفة لكن الكلمــات الوقورة قد أبدلت بكلمات أخــرى راقصة اعتبروها ســخرية فاتجهوا جماعات إلى مصدر الصــوت يقودهم الغضب.. لكنهم فوجئوا بشــارعهم يبدو تحت الضوء الشــاحب ولأول مرة نظيفا لامعًــا خاليًا من الزبالة وأدهشهم أن يكون صاحب الصوت الأجش والمواويل المحورة هو ذلــك الكناس الجديد ذو الأفرول البرتقالي الفاقع والذي يعمل بهمة ونشاط مســتغرقا في عمله.. وحين انطفأت طاقتهم العدائية حاول أحدهم -تشــجيعا له - أن يدس في جيبه العلوي ورقة مالية ضعيفة تناســب وضعه فأعادها إليه في ضيق مســتنكرا "لست متسولا يا حضرة" تقوس حاجبا المحسن وحك لحيته البيضاء القصيرة أيمكن أن يكون هذا الرجل كناســا عاديا؟ كل الكناســين الذين رآهم - في إمبابة وفي غير إمبابة- لا يعمل الواحد منهم أو حتى يلتفت لتنظيف

الشارع بقدر ما يعمل مادا صوته طلبا للإحسان فما بال هذا الكناس يشذ عن الجماعة؟

سأله الرجل إن كان تابعا للحكومة أم لشركة خاصة فأجابه أنه تابع لنفسه.. يعمل لحساب نفسه!

كان "عايش العريان" يعمل لحساب نفسه بالفعل.. إذ كان يحس وهو ينظف الشـارع أنه لا ينظف جلد الشـارع وإنما ينظف جلده هـو.. يزيل عنه القاذورات الملتصقة به لا تبرحه منذ أن ولد على كوم سباخ!

أتكون تلك الغجرية التي هربت من القرية بعد ولادته هي أمه؟

وأبوه.. من أبوه؟. أخـذ عايش - حين كبر يتفحص الوجوه في القرية بحثًا عن وجه يشبهه فوجد الوجوه جميعا أمامه قد تشابهت، كيف يصل إلى أبيه ونصف القرية رجالًا ونساءًا يتبادلون القفز على بعضهم في الخفاء.. ليلًا في الزرائب ونهارًا في حقول الذرة!

"أهل إمبابـة يظنون أن ما في يدي" مقشـة وليس ما في يدي إلا "ليفة أدلك بها جسـمي في نوبة اسـتحمام".. قال لي: القانون الأول فـي الحيـاة هو الحركة.. وها أنا أتحـرك من الفجر وحتى غروب الشمس لا أتوقف ولا أستريح حتى الطعام أضعه في جيبي سندويتشـات من الطعمية الساخنة لذيذة الطعم. هو الذي اختار لي

أن أعمل كناسًــا حتى لا أكف عن الحركـــة واختار لي حي إمبابة الشعبي حتى أختلط بالناس. وقال لي: القانون الثاني: الحماس.. وها أنـــا أعمل بكل حماس بعد أن كنت قد عـــدت أجلس داخل البرميل ما أن انصرف عني فـــي زيارته الأولى فعاد إلي ثانية يطلب مني أن أنـــزل إلى المدينة. قلت كيف؟ أنا لم أر هذه المدينة من قبل ولم أدخلها منذ هربت صبيًا من القرية فقد ركبت سيارة أجرة من إحدى القرى التي لجأت إليها ونزلت على الطريق السريع قرب "بنزينة" ورجوت أحد عمالها أن يعطيني برميلا لوجه اللـه.. دحرجته حتى وصلت إلى الصحراء حيـــث اختبأت منذ ذلك الحين! وهكذا لم أر المدينة أبدًا عشـــت على الأطراف فكيف أنزل إليها غريبا بعد كل تلك السنين!

فوجئت به أمامي مرة أخرى وقد عاد إلي يأمرني "اخرج" فقفزت خارجا من برميلي أعدو داخل الصحراء كان الوقت ليلا وبصيص ضعيف من قمر وليد يطل ظللت أعدو متوغلا في المجهول بينما هو يصيح بي "قف" لكني لم أقف إلى أن تعثرت ووقعت لم أنهض فقد قرّ في راسي أنني مهما جريت فسيطولني.. أليس جنيًا قادرا على الطيران إن أعياه الجري!

جلس بجواري على الرمل وفتح صندوقا أسود أحضره معه، ذكرني بحقيبة طبيب الصحة التي كان يحملها حين ينزل إلينا في

القرية وأخبرني أنه أحضر لي المدينة نفسها وقال: هذا هو صندوق الدنيا قلت: أنا أعرف صندوق الدنيا وشاهدت ما فيه من العجائب حين كنت صغيرا.. شاهدت أبا زيد الهلالي سلامة والزير سالم وسيوفهما الخشبية المقوسة و...

ضحك وهو يخبرني أن الدنيا تغيرت الآن وأن هذا هو "صندوق الدنيا الجديدة" وبدأت تظهر في الصندوق صور كأنها حقيقية.. رأيت البحر الواسع كأنه سماء مقلوبة ولكن بلا نجوم ورأيت الجبل الشاهق الذي يسند الأرض حتى لا تفر ثم وياللعجب رأيت نساء تتحرك لم أر مثلهن أبدا.. قلت: "لابد أن هذا الصندوق من تحت الأرض وهذه النساء ما هنّ إلا جنيات" قال: "كل هؤلاء النسوة ستلقاهن في المدينة بلحمهن لم أصدق ومع ذلك" انتعشت وقلت: خذني إليهن فإنني محروم

مصمص وقال: وجهك ذابل من إقامتك الطويلة في البرميل.. سأعيد إليه حيويته أولًا وعاد يخرج الحقنة ذات السائل الأحمر فعريت له ذراعي طائعًا سعيدًا فحقنني للمرة الثانية فانتعشت وسار بي إلى هنا لأعمل كناسًا لا أكف عن الحركة وأعطاني هذا الجهاز الصغير ذا الأزرار المضيئة والشاشة السحرية وعلمني كيف أدوس على الزر ليظهر لي على الشاشة وأحدثه ويحدثني، أما هو فسيعرف مكاني كما قال.

نقلني هذا "الجني" من الموت إلى الحياة.. ولكن أين تلك النساء اللاتي رأيتهن في صندوقه؟ كل الذين يمرون بي رجال.. هل يخبئهم هؤلاء الرجال خوفًا من نشاطي وحيويتي بعد حقنة الشباب الدائم التي حقنني بها الدكتور؟ (ولم تكن تلك الحقنة في الحقيقة إلا فيتامين ب المقوي فقد رأى الدكتور يسـري أن يتدرج معه إلى أن يكسب ثقته ثم يعطيـه حقنة المزيج). وفيما يغني عايش العريان بأعلى صوته منتشيًا وهو يكنس تجاوب مع صوته نهيق حمار. حين التفت وجد رجلًا رث الثياب مهوش الشـعر تطل أصابع قدميه من حذاء بال مهترئ ويتدلى من بين شفتيه عقب سيجارة شبه مطفأ وإلى جواره جحش هزيل مشـدود إلى عربة ذات صندوق خشبي قديم تطل منه علب كرتونية مسـتهلكة.. اقترب منـه الرجل وطلب منه بصوت يغلفه الضيق ودون أي تحية أن يكف عن تنظيف الشـارع إلى أن يلتقط رزقه، استفسر منه عايش: أي رزق يقصد؟ أخبره أنه يجمع المخلفـات من أكياس الزبالة -إن وجـدت- وعلب الكرتون يبيعها ويرتزق منها فتركه عايش يجمعها ولكن الزبال أعاد إلى الشـارع قذارته إذ كان يفرغ الأكياس والكراتين من محتوياتها دون أن يبالي فاعترض عايش ينبهه إلى أن ما يفعله يجعل من عمله مجهودًا ضائعًا ويفقده الحماس الذي يحتاجه للعمل، لكن الزبال زغده بيده في صدره وتدخل شخص آخر ربع الجسم تبدو عليه الشراسة:

"دعه يرتزق" قال الشرس:

"إنه يعيد للشارع وساخته" رد عايش

"أكل عيشه" شخط الشرس

وسريعًا ما تماسكت الأيدي كل يدافع عن عمله.

أمام أمين الشرطة وقف الثلاثة.. أفرج الأمين عن جامع الكراتين لبؤسه وعن الرجل الشرس لبطشه واستبقى عايش مجهول الهوية والعنوان والأهل يسأله إن كان هناك من يضمنه أخرج عايش "الموبايل" - والذي يعتقد أنه سحري من جيبه وداس على الزرار فجاءه صوت الدكتور يسري الذي دار بينه وبين الأمين حوار سريع وصل للمأمور فأمر بالإفراج عنه وهكذا وثق عايش في قدرات صديقه الجني ثقة عمياء وسمح له أن يحقنه للمرة الثالثة.. ولم تكن هذه الحقن في الحقيقة هى الدواء الشافي من المرض وإنما كانت هى المرض نفسه.. فيروسات الإيدز تأخذ طريقها إلى جسم عايش كي تصيبه بالمرض أولا ليحقنه بالدواء بعد ذلك!

***

عاد الدكتور يسري سعيدًا إلى القصر يداعب ندى وعاد عايش منفوخ الصدر إلى مسكنه في شبرا والذي استأجره له صديقه وجهزه بكل ما يلزم، كما أحضر له دراجة تعفيه من زحام المواصلات وأوصى له بثلاث وجبات من مطعم قريب تصل إليه تباعًا وبقي السؤال الدائم في رأس عايش بلا جواب.. لماذا يهتم به هذا "الجني" كل

هذا الاهتمام وهو ليس من أهله ولا من جنسه ولا يمت له بصلة؟

حين التقيا بعد ذلك شكه الدكتور يسري بإبرة في إصبعه ليأخذ منه عينة دم باعتبار أنه يطمئن على صحته وفحص العينة في معمله الصغير ووجد أن المرض بدأ يعمل في جسمه بطيئا

سـألـه الدكتور -ليطمئـن على معنوياته كعامل مسـاعد للدواء القادم- إن كان سعيدًا

رد عايش: كيف يكون سعيدًا وهو محروم من النساء؟!.. ثم إنه سمع الناس تتحدث عن مدن جديدة غير إمبابة تمتاز بالنظافة والجمال - يريد أن يقول الجميلات ولديه شوق أن يعمل هناك ولو بوابًا أخبره الدكتور أنه رد ليس هناك بوابون، إنما رجال أمن مدربون.. وألحقه بالعمل ساعيًا لدى محام صديق طيب يثق فيه اسمه "عابد المتيم"

وهكذا ترقى عايش وخلع الأفرول البرتقالي وارتدى بدلة صفراء لها أزرار لامعة أحس وهو يحبكها على جسمه أنه ضابط واستخرج له الدكتور بطاقة رقم قومي باسم "عايش محمود العريان"... وما أن أحس عايش بحبكة البدلة على جسمه كضابط والموبايل في يده كمهندس وعمله لدى المحامي كرجل قانون حتى أحس بعظمته فترك العمل وغادر القاهرة كلها إلى قريته في هيئته الجديدة.

*

عابد ورشيدة

لأول مرة فــي حياته الطويلـــة يقف الدكتور يســـري الراوي أمام وكيل نيابة متهما. حين وصله الاســـتدعاء يحمله محضر إلى عنوانه بالقصر تســـلمته "ندى". لكـــن الدكتور الذي كان قريبًا من الباب الرئيســـي في الحديقة استفسر عن الأمر وحين أخبرته ندى بالموضوع تســـلم الورقـــة ووقع ثم نظر فيها وأخـــذ طريقه - في قلق - إلى داخل القصر فدخل الحمام وحلق ذقنه وأخذ دشـــا منعشا خرج بعده إلى حجرة النوم فارتدى ملابس الخروج ومشـــط شعره وتعطر.. ســـألته ندى.. "ما الأمر هل يتعلق بالمحضر السابق في قسم الشـــرطة؟" قال "لا أعرف" فعلقت وهى تتشمم عطره "تبدو كعريس ذاهـــب إلى حفل زفاف" هل آتي معـــك؟ قبّلها في جبينها وابتسم وتحرك.

حين دخل مكتب وكيل النيابة ورأى صديقه عابد المتيم المحامي وبرفقته عايش العريان في زيه الجديد اطمأن وخمن أن الأمر لابد يتعلـــق بخطأ ارتكبه عايش لدى المحامي. أشـــار وكيل النيابة إلى

مقعد أمامه فشكره الدكتور وجلس. قال صديقه المحامي: "هذا هو الرجل الذي تتهمه موكلتي السيدة رشيدة الكيلاني طليقته بالاستيلاء على القصر حيث شـــاركت في تأسيسه" وقبل أن يفيق الدكتور من طريقة صديقه في الإشـــارة إليه كمجهول أضاف المحامي بصوت شرس: "وأنه يؤوي في القصر فتاة صغيرة قاصرًا يعاشرها معاشرة الأزواج بعد أن رحل أبواها وهناك شك أنها ابنته!"

ارتبك عقل الدكتور للحظات.. لكنه تعود في مثل هذه الحالات -وهو الرجل العلمي التفكير- أن ينتظر قليلا قبل أن يتكلم وأن يرتب عناصر الموضوع وأن يتخلى عن أي انفعال حتى لا يؤثر على اتزانه أخذ نفسا عميقا ونظر إلى المحامي الذي كان فيما قبل اللحظة صديقا طوال ثلاثين عاما- وإلى عايش العريان الذي يركز بصره في أرض الحجرة وأخذ يرد على الاتهامات:

أولًا: هذا القصر ملكي وحدي بالأوراق الرســمية وبالوراثة.. وقد أضفت إليه من جهــدي طوال ثلاثين عاما قضيتها متغربًا في دول الخليــج لا ألتقي بحكم عملــي إلا بمرضى العقل والأعصاب وأكمل: "أقلهم مصاب بالشــيزوفرنيا كهذا الرجل" وأشـــار لعابد وعلــى الفور طلب عابد المحامي إثبات هذا "الســب والقذف" في الأوراق الرســمية لكن وكيل النيابة تجاهل الأمر فواصل الدكتور يســري: "ثم إن هذه الفتاة القاصر التي تدعي طليقتي على لســان

هذا الرجل أنني أعاشــرها هى بنت الرجل الذي كان يعمل بستانيا في حديقة قصـــري قبل أن يغادر الحياة بعــد رحيل أمها.. وحين أصبحت وحيدة كان علـــي أن أختار إما أن أطردها خارج القصر منعا للشـــبهات ولأقاويل النفوس المريضة وإما أن أرعاها حرصا على مستقبلها فألحقتها بمدرسة راقية إحساسا مني بالمسئولية

صاح المتيّم:

"كوليّ امر أم كعشيق؟"

بلع الطبيب ريقه قبل أن يقول إن ندى رشيدة وواعية

تدخل وكيل النيابة: يلفت نظر الدكتور "الأوراق الرسمية تقول أنها في السادسة عشر كما هو مثبت في شهادة ميلادها التي أحضروها من المدرسة، وعلى هذا الأساس فهي قاصر"

أخرج يسري الراوي ورقة من مظروف يحمله وقدمها لوكيل النيابة فنظر فيها ثم نظر إلى المحامي الذي ارتبك للحظات ثم إلى الدكتور ثانية يتساءل ما معنى هذا؟ لها شهادتا ميلاد؟:

نظم الدكتور يسري أفكاره سريعًا:

"ندى تركها أبوها حتى ســن الثامنة دون تعليم.. كان يعتقد أن تعليم البنت مفســدة.. ولما نبهته أن هذا حقها اكتشــفت أنه يكاد لا يراها إذ كان يريدها ولدًا بديلا عن ابنه الذي مات صغيرًا.. أرغمته

على تعليمها وتوليت أمرها قدمت لها في المدرسة لكن المدرسة رفضت أوراقها إذ أنها تجاوزت السن المطلوبة بعامين وحرصا على مستقبلها استخرجت لها شهادة ميلاد تثبت أنها في السادسة لا في الثامنة وهى تلك الشهادة التي أحضرها هذا الرجل من المدرسة.. هى الآن في الثامنة عشر حرة رشيدة. قال وكيل النيابة: "سنحتكم إلى الطب الشرعي لفحص الشهادتين ثم أشار إلى عايش العريان"

"وهذا الرجل يتهمك يا دكتور بأنك تمارس عليه أعمال السحر لتسيطر عليه مدعيا أنك جنّي من تحت الأرض وأنك حملت إليه الدنيا في صندوق في حين أن هذا الصندوق ما هو إلا جهاز اللاب توب. غمغم عايش: نعم يا سيدي وأعطاني هذا الجهاز "الموبايل" على أنه شاشة سحرية بينما هو مجرد تليفون كما أخبرني الأستاذ

تماسك يسري محاولا أن يرتب كلماته "عايش هذا رجل ساذج كسول قضى معظم حياته قابعا داخل برميل يقصده العابرون على طريق السيارات يقدمون له الطعام والشراب على أنه زاهد إلى أن رأيته وأخرجته من البرميل وتعاملت معه حسب سذاجته"

صاح المتيّم محتدًا:

"وما الذي دعاك أن تتدخل في حياته؟"

همّ الدكتور يسري أن يضع إصبعه في عين عابد لكنه قال: "كان مريضًا فعالجته"

شــوح المتيّم بيده في الفضاء صائحا كأنه فقد ثقته بالنيابة وبكل وكلاء النيابة وبكل القضاء المصري متوعدا بأنه سيلجأ إلى السفارة الهولندية وســنأخذ كل حقوقنا كاملة فالسيدة/ رشيدة طليقتك تحمل الجنســية الهولندية إلى جانب الجنســية المصرية وربما ألجأ إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي". التفت الدكتور ينظر نحو عايش فهو ما يهمه فلم يجده. كان عايش العريان قد اختفى.

***

ماذا تريد هذه المرأة "رشيدة" منه وقد غادرت القصر محملة بصندوق من سبائك الذهب المدموغة تكاد لا تقوى على السير وزنا ومرضًا كيف تزوجها أصلا وكيف خدعته طوال هذه السنين لتحوله من مغامر يتسلق الجبال إلى جامع مال؟ ثم طامعة في القصر الآن؟ لم تكن مادية هكذا حين التقى بها أول مرة ولم تكن شرهة هكذا بل كانت جوالة مثله تعيش حياة غجرية حرة مع المتمردين "الهيبز" في هولندا في السبعينيات، حين اقترب منها يسألها إن كانت مصرية ردت: "أبا عن جد..أحضر دكتوراه في الأدب الفارسي واخترت عمر الخيام ما رأيك؟"

قال: نموذج حائر بين الشك واليقين

قالت: أنا اعتبره وجوديًا وأنا أيضًا وجودية فهل أنت وجودي؟ أخبرها أنه جراح مخ وأعصاب متخرج حديثًا يهوى تسلق الجبال أملًا في الوصول إلى قمة ما

سحبته إلى داخل كيسها البلاستيكي حيث تنام وعرت ثدييها:

"هيا إذن اصعد.. هذه هى أعلى قمة في العالم"

ولم يدر بنفسه إلا وهو يصعد جبليها ثم ينزل إلى الوادي واحتواهما الكيس فلم يخرج منه إلا وهما زوجان

***

بعد خسارته عابد المتيّم وهروب عايش العريان أصبح الدكتور يسري يشرد كثيرًا أحيانًا بسبب الزهايمر وأحيانًا بسبب التفكير.. كيف تحول هذا الصديق عن مثالياته السابقة إلى كائن يدافع عن مصلحته دون النظر لأي اعتبار؟ كيف تحول من الدفاع عن الحق إلى الدفاع عن الباطل؟ ولماذا اختفى عايش رغم ما قدمه له؟

وأمسى الدكتور يسري يذرع شوارع وسط المدينة كل ليلة على غير هدى.. يراقب حركة الناس والسيارات ويتفحص المارين عله يعثر على عايش.. لم ييأس فاليأس في اعتقاده يساوي الموت تمامًا، جلس على السور الحديدي في ميدان طلعت حرب أما محل عصير فواكه وتذكر أنه مريض بالزهايمر وأنه في سباق مع الزمن فقرر

أن يستمتع بالمتاح من الحياة ويمتصه امتصاصًا، وأن يخرج من تلك الحساسية المرضّية التي تعوق حياته.. ويحيا كما يحيا كل الناس "غائبين عن الوعي مركزين في الطعام والجنس لا أكثر خاضعين للقانون الطبيعي الموحّد.

غادر السور الحديدي حيث يجلس متقدمًا إلى محل العصائر يزاحم الطابور صائحًا بحماس شديد "كوكتيل" وعاد يجلس على السور يشرب العصير بتمهل وتلذذ.. رشفة رشفة كأنما يحتسي مكوناته الأولية ثمرة ثمرة: الفراولة والمانجو والبرتقال والموز وما لا يعرف.. وفكر أن يجرب التدخين وشرب الشيشة لكنه عاد يستبعدهما حرصًا على صحته إذ هما يعملان لصالح الموت.. كانت مكتبة مدبولي مضيئة أمامه فاتجه إليها بحثًا عن كتاب جنسي.. وجد معظم الكتب المعروضة كتبًا دينية أو كتبًا تراثية.. عبرها إلى أن لفت نظره كتاب كتبه طبيب هندي متخصص في المخ والأعصاب مثله كان الكتاب يحمل عنوانًا جانبيا "كتاب الأسرار" تناوله وسأل عن ثمنه "خمسمائة جنيه" أخرجها ودفعها بلا تفكير. لم يعد إلى القصر تجنبًا لرؤية ندى، ورأى أن يملأ بطنه حتى تسحب الدم كله من العقل إلى الهضم فيتبلد.

كان المطعم الكبير مملوءا بالزبائن.. شبابا وعواجيز فأخذ مكانه بين الشباب وجلس.. كان ضجيج الخبط على الأواني النحاسية يكاد

يصم الآذان.. لكن الدكتور استعذبه كموسيقى شعبية تعمل كمشهيات قبل التهام الطعام.. أتاه العامل عالي الصوت يتراقص يسأل عن طلبات "الباشا" فطلب طبقين من الكوارع العجالي السمينة الساخنة جدًا مدعومة بالبهاريز.. أخبره العامل أن السمين شئ والعجالي شئ فقال له "كوكتيل عالي الدسم" وطلب فتة وشوربة فسأله العامل إن كان يريد الويسكي العادي أم "شوب" فدهش إذ تقدم هذه المطاعم خمورا لكن العامل صحح له فالويسكي هنا بلدي عبارة عن كوب دافئ تقدم فيه السلطة الحراقة المشطشطة "لزوم الشغل" وفهم الدكتور وضحكا وأخذ يفكر في الشغل!

حين خرج كانت معدته مملوءة بالكوارع وبالويسكي وما أن خطا حتى أحس بمن يجذبه من طرف البنطلون فنظر أسفله ليجد متسولة شابة - فتاة أو امرأة لا يعرف - هى التي تشده من مكانها على الرصيف توقف يهم أن يعنفها لكنه دس يده في جيبه ومدها إليها بجنيه معدني فلم تمد يدها لكنها رفعت عينيها إليه وهمست بصوت ضعيف:

"أنا بردانة"

ظنها تقـــول "أنا جعانة" فأخرج جنيهيـــن آخرين ومد بهما يده فأمســـكت بيده تســـتعين بها ووقفت: "أنا بردانة" تحقق مما تقول واندهش.. من أين يأتيها البرد وهى في ملابس طويلة كاسية ونحن

في عز الصيف؟ وقبل أن يفهم تماما انحنت على يده تقبلها "هذه أول مرة والله" خمن أنها تمارس التسول حديثا فقد كانت صغيرة السن كما كان الحزن يطّل من عينيها.. لم يتكلم.. تكلمت هى.. قالت: "أنا خائفة.. أبي مات أمس" صمت فهمست له ضارعة:

"أنا أعيش وحدي.. وأخاف الظلام.. تعال معي"

أدرك الدكتور أنه أمام حالة لا متسولة عادية.. وأدرك أنها تفتقد الأمن لا المال.. أخذ يتفحصها.. أتريده كأب بديل أم كرجل؟ قال له الطبيب داخله أنه في مثل حالات الفقد المفاجئة ترتبك الأحاسيس ويعلو الخوف فلابد أنها تريد التأكد أنها ماتزال حية وأنها لم ترحل برحيل أبيها وأنها كي تتأكد تحتاجه كرجل يؤكد بجسده أن جسدها مايزال موجودًا وأنها ما تزال حية فقرر أن يؤكد لها وجودها ووجوده.

أمسكت يده وقبضت عليها كما لو كانت تخشى أن يهرب وقادته فانقاد معها طائعًا ناسيًا نفسه.. سار في زحام العربات وزعيق الميكروفونات في "العتبة" لا يشعر بشئ مما حوله.. يحس أنهما يسيران - لا يراهما أحد - داخل ماسورة أو أنبوبة عازلة للصوت وللناس.. كانا كلما تقدما في السير أطبقت على كفه أكثر.. وارتعشت فتنتقل إليه رعشتها فيرتعش معها حتى علت داخله رغبة عارمة في أن يلتحم بهذا الجسد الحزين فورًا وفي الشارع

اوقفت سيارة أجرة وقالت للسائق "عطفة أبو داوود" لم ينطق

الدكتور أنزلته فنزل تدخل به في الحواري والأزقة المظلمة بينما تعلو داخله الرغبة يؤججها الظلام والظلم دخلت به بيتًا قديمًا وصعدت به سلالم متهالكة إلى السطوح وما أن دخلت غرفتها وأغلقت الباب حتى ارتمى عليها يحاول أن يغوص في لحمها ففوجيء بها تدفعه عنها.. "لا.. لا أريد" ثم راحت تركع أمامه.. "أنا بنت وأحب ولن أخون حبيبي".. فخمدت طاقته على الفور وقد أعادته كلماتها أبًا.. اتجه صامتا إلى السرير الحديدي يجلس على حافته مطرقا اقتربت منه وجلست بجواره وربتت على كتفه: "لا تغضب، أنت إنسان طيب" أوما برأسه دون أن ينظر إليها.. قالت: "أبي مات ولم يزوجني.. حاول أن يقترض ما يجهزني به ولما يئس مات" تحولت الفتاة أمامه إلى حالة إنسانية زاعقة

سألها إن كانت قد تعشت فأخبرته أنها ليست جائعة

سألها عن اسمها فقالت:

"اسمي سمرة.. وأحب عبد الحليم حافظ وأحفظ كل أغانيه عن السمر وأحلم به"

وراحت تغني:

"سمراء يا حلم الطفولة

يا منية النفس العليلة

كيف الوصول إلى حماك

وليس لي في الأمر حيلة"

وهي تقترب منه قالت: "أنا أعرف معنى العليلة يعني المريضة وقد كان حليم مريضا. مات دون أن يتزوج"

ابتسم: "لو أنه قابلك لتزوجك ولما مات"

قالت: "كتر خيرك" وبدلا من أن يرى السرور في عينيها فوجئ بها تبكي: "كان اسمه هاني.. كان وديعا وهادئا وله خصلة على جبينه.. "أحببته منذ كنا أطفالًا نلعب في الحارة وكبرنا معًا وكبر وافترقنا كان فقيرًا ومرض ومات". ثم أراحت رأسها على كتف الدكتور تواصل الحديث ناظرة إلى لا شئ:

"أحيانًا يأتي وينام بجواري في السرير ولكن بلا جسم" لم يعلق الدكتور فعادت تبتسم من بين دموعها "أنا أعتبر نفسي زوجته فلا أخونه" فهم الدكتور حالتها وحالته أيضًا فأفاق.. أراحت رأسها على كتفه ونامت. تركها حتى استغرقت في النوم وبرفق تام نقل رأسها إلى الوسادة ثم دس يده في جيبه وأخرج عشرة آلاف جنيه رزمة واحدة كان قد سحبهم كي يحتفل بعيد ميلاد ندى ووضعهم بجوارها والتقط "كتاب الأسرار" - الذي اشتراه - وتسلل في هدوء خارجًا يبحث عن الطريق.

***

كانت الساعة تقترب من الرابعة صباحًا.. حين عاد إلى القصر وكان "عم عبده" نائمًا كعادته فأيقظه يفتح له فهب فزعًا رافعًا يديه لأعلى كأنما يستسلم لمجهول يطارده وما أن تحقق من شخص الدكتور حتى اطمأن وفتح.. عبر الدكتور الحديقة سريعًا وصعد السلالم ومر في طريقه إلى حجرته على حجرة ندى المضاءة لا يريد أن يشعرها بعودته.. اتجه لحجرة نومه وأبدل ملابسه وارتدى جلبابًا قطنيًا مريحًا وتمدد وفتح "كتاب الأسرار" الذي يقع في أربعمائة صفحة.. فتحه كيفما اتفق وأخذ يقرأ بنصف انتباه تحت عنوان "الجوع":

"إن الجــوع الأكبر في الحياة ليس للطعــام او المال أو المنزلة أو الجنــس وإنما الغوص للبحث عن الجوهرة الأثمن في الوجود.. الحقيقة"

فــرّ صفحات الكتاب إلى أن وصل إلـــى عنوان مبهج: "العثور على تيار الفرح" فهذا ما يريده بالضبط.. الفرح

أحس بنشاط طارئ فحمل نفسه وحمل الكتاب مفتوحًا وذهب إلى حجرة المكتب وجلس كي يقرأ باهتمام وتركيز واحترام

"احصل على وردة حمراء جميلة.. وضعها أمامك واستنشــق عبيرها وقل لنفســك: من دوني هذه الوردة ليس لها عبير.. شــاهد لونها المتوهج وقل: بدوني هذه الوردة ليس لها لون.. المسها وقل: لولا كفي ما كان لهذه الوردة ملمس.. والآن ادخل إلى خلايا الوردة

الحية.. ادخل داخلها وتأمل الحمض النووي الـ D.N.A سر الحياة وقل لها: إن حمضي النووي ينظر إلى الحمض النووي فيك.. طاقتي تنادي طاقتك.. لتندمج معا كي نصبح طاقة واحدة.. لنتحول كأمواج المحيــط التي ترتفع وتهبط إلى مالا نهاية.. هذا هو الفرح الحقيقي وهذا هو الانسجام التام

"تزوجني"

فوجئ يســري بالصــوت والكتاب ما يزال في يــده ثم فوجئ بالصورة..

كان الصوت صوتها.. والصورة صورتها.. لم يصدق عينيه

عاد إلى الكتاب:

"من دوني هذه الوردة ليس لها عبير.. من دوني ليس للونها المتوهج لون ولولا كفي ما كان لها ملمس.. وعاد يفرك عينيه.. ينظر ويسمع ويرى.. كانت ندى تقف أمامه بقميص نوم لأول مرة في حياتها وحياته يهمس له صوتها وجسدها معًا:

"صار عمري سبعً عشرة

صرتُ أحلى

صرتُ أكبر

صرتُ لو تلمسَ جسمي تتخدّر"(*)

علا صوتُ الريح تزوم في الحديقة على غير طبيعتها في هذا الفصل من العام بينما ندى تدور حول نفسها تستعرض جسدها يكاد صوت لحمها يسمع من تحت القميص "تزوجنى الليلة"

كانت ندى في حالة هذيان نتيجة لما حقنته بها "رشيدة في التليفون منذ قليل تخبرها أن الدكتور يسري مريض بالزهايمر الذي لا علاج له وأنه سيموت، وأعطتها رشيدة علامات المرض وأولها: النسيان وتأكدت ندى أنه مريض فعلا"

عاد الجسد الباكي يهمس:

"قم وتزوجني"

لم يتحرك فتحركت هى.. في اتجاه المكتب -حيث يجلس- كى تغريه بالحياة واتكأت عليه بمرفقيها متعمدة أن يطل الأرنبان الصغيران من نافذة القميص يتشممان أنفاسه.. مدت إصبعها إلى برطمان العسل الذي يحتفظ به دائما على مكتبه وغمست الإصبع الصغير فيه ثم سحبته وأدخلته بين شفتي يسري:

"سأتزوجك الليلة رغما عنك"

هــمّ أن يقول لهــا: لبيك.. إن حمضي النــووي ينادي حمضك

(*) من أشعار نزار قباني.

النووي وطاقتي تنادي طاقتك لكنه قال بصوت ضعيف:

"لا أصلح زوجًا لك يا ندى".. فانحنت أكثر على المكتب تغالب البكاء:

"وأنا لا أرى رجلا غيرك في العالم يا يسري"

لأول مرة تنطق اسمه عاريًا فلم يعد بينهما مسافات ولا أزمنة ولا أعمار.. وحين طال الصمت بينهما وفي زمن ضبابى غائم حمل كل منهما الآخر إلى سريره.. الكوريدور الطويل لا ينطق ولا تنطق.. أنفاس فقط وعيون نصف نعسانة. وفي الطريق همست "تزوجني أولًا" قل هل تقبلني زوجًا.. قالت: "وأنا قبلت" ودخلا الغرفة.. ها هي المملكة المحرمة يدخلها الأمير المنتصر أخيرًا

وخفيفا خفيفا وضعها على سريره فتمددت وأغلقت عينيها وهامت.

وخفيفًا خفيفًا وضعته على سريرها فأغلق عينيه وهام.

همست: "أطفئ النور" فأطفأه.. فأضاء القمر وتلألأت النجوم وطارت الفراشات

وفي الضوء السحري أخذ يتأمل هذا الوجه الناعس وأخذت تتأمله.. تحيط به جدائل الشعر المنسكبة على الوسادة كغابة عذراء لم تدخلها شمس من قبل.. يقرب عينيه يتأكد وما أن تمسه أنفاسها

حتّى تتحول نسائمها ريحًا برية عفية تلفحه فيميل عليها فتهمس:

"في دولابي أنواع كثيرة من العطور.. اختر منها ما يحلو لك"

يهمس هو: "وهل تحتاج الحديقة إلى عبير؟ دعيني أدخل إليها على طبيعتها بأزهارها وثمارها وأعشابها وطينها"

قالت: برفق لو سمحت

قال: سأسير على شفتيّ

مدّ يده يتحسس الطريق إلى الأرنب الصغير البرّئ يخرجه ويلتقم الحلمة فيتحول جسدها كله إلى نهدها.. أي نوع من الموسيقى تلك التي تسري في البدن؟

همست تستبقي النشوة: "بمهل لو سمحت"

كانت كلمات "طاغور" - كما درستها في المدرسة - تسري في النهد مسرى الحليب الذي لم يتكون بعد:

"إن النحلة لا تذهب إلى الزهرة طوعا أو بحثا عن الرحيق

لكن الزهرة تنبعث منها موسيقى خفية تدعو النحلة إليها

فلا تملك إلا أن تلبي"

يتحول بشفتيه إلى شفتيها وتتحول بشفتيها إلى شفتيه يرتويان بعد طول حرمان.. بينما يداه تتسللان لتخلع عنها القميص الذي

يتغير لونه ولا يثبت على حال

- "ما لون قمصيك؟"

- "برقوقي مشرق"

- "وما نوع نبيذ الشفتين؟"

- "توت بّري"

- "وهذا العطر الخارج من جسدك..

لا رحمة فيه من أي الغابات شرب"

- "لا أدري.. كنت صغيرة"

- "أو لم يخبرك بشيء عني؟"

- "أخبرني أني حين أعي..

لن تتفتح أزهاري إلا في بستانٍ مجنون"

- "والآن"

- "حافيةً عاريةً أتمرّغ في النورِ وفي الطين

ينضَجُ فيّ عجيني

يتشكّل داخلَ أفرانكِ أحصنةً وعرائس"

ملهوفةً تتجول شفتا الرجل زاحفة فوق الجسد الظامىء تهمس

في الأذنين تتشممُ عطر الابطين.. تشربُ من نبع السرّة ومما خلف الركبتين.. يرتجف الجسد ويرتعش فتنزل الشفاه زاحفة نحو القدمين تتأنى في حضرة أصابع الحلوى تمتصها واحدة واحدة فتشهق البنت ويعلو التغريد:

"نقّر فيّ قلبي نقّر

يا طيرًا لا أدري ما اسمُه

لا أدري من أي مكانٍ جاء بهذا النغم

الصافي الكافي النشوان"

"نقّر يا طيرا أسكرني

نقر يا طيرا حرّرني

فأنا أحببتك أيّا كنت وأيا كان الساكن فيك

إنسيّا أم جنيّا أم شيطان"

يتداخل الجسدان وتعلو الأمواج

"صبي أيامك في أيامي

أحيلي الليل نهارًا

والبارد نارًا

والساكنَ بحرا فوّارًا"

تزحف أصابعه تحاول أن تخلع عنها تلك القطعة الحريرية المثلثة اليقظة لكن البنت تمسك بأصابعه..

"من فضلك لا

لا تستعبِد جسدي كلّه في ليلة

دع لي شيئًا للغد

كي أشعرُ أني حرّة"

تتراجع الأصابع غاضبة مُغَضبة لتعود الشفاه تعمل مجنونة.. تشهق الأوتار ويعلو العزف تتحلل بنت السابعة عشر إلى عناصرها الأولى.. ماء وترابا وهواء ونارا.. يتأجّج فيها اللهب وتكون شمسًا.. قرصًا ناريًا.. يقترب ويبتعد.. يهرب فتلاحقه.. ترجوه فيتأبى.. تتوسل.. تمد ذراعيها وتمد الساقين.. تتلوى تتكوّر تصرخُ ممسكةً بالقرص المتوهج بين الفخذين

يضيئ الجسد جميعا وينطق:

"هذا هو الاكتمال"

وما أن أفاقت ندى حتى أدركت أنها وحدها وأنها حملته دون أن يحس وتزوجته دون أن يدرى.

حين التقيا أمام حوض السباحة.. يفطران معًا..

قالت: "كنت رائعًا بالأمس"

ظنها تسخر

"ألم تحس بما فعلته طوال الليل؟".. اندهش أنها أحست به

وتساءل عما فعله فقالت: "لقد تزوجنا".. زادت دهشته

توقف عن الطعام

"عم تتحدثين؟!"

ردت بشيء من الجرأة وشيء من الخجل:

"عنك.. لقد تزوجتك غيابيًا.. ودون عقد أو شـــهود ودون حتى أن تحضر"

ابتسم فأضافت وهما يجلسان:

"ألن تتزوجني حضوريًا؟"

وجد نفسه يقول لها كأنما فمه ينطق دون إرادة منه:

"سأتزوجك غدًا زواجًا رسميًا"

قفزت عاليًا ثم مندفعة إلى الماء بكامل ملابســـها وكامل فرحتها حتى كادت تغرق.

بات الدكتور يسري الراوى يفكر:

ما باله يحس ساعة أنه شاب صغير وأحيانا أنه عجوز مهدم! من هو بالضبط، وماذا تعنى له تلك الأحاسيس الوافدة؟ هل عاد مراهقًا من جديد حتى يفعل ما يفعله المراهقون؟

لقد قرأ يوما عن عاشقين برّح بهما الهوى فقررا الانتحار سويا وفي لحظات النهاية ســألته المعشوقة في أسى وهي تودع الوجود "وهذه الحياة يا حبيبي أنتركها هكذا ونرحل؟" قال: "ســيحياها لنا خُدّامنا". يقول الدكتور لنفسه: "هذه الحياة ليست جديرة بأن نحياها بلا حب".. هي تليق فقط بالخدم الذين لا يحسون.

هو سعيد بلا شك إذ تحول حنُبّه واهتمامه بندى إلى حب.. وحب جارف.. عشق.. ليست المسألة فجاة إذ لابد أن تكون مشاعره كانت خبيئــة من قبل.. كامنة.. حية داخل الشــرنقة.. الآن أصبح للحياة معنــى وللمكان معنــى وللوجود معنى وقبل هذا كله له هو نفســه معنى.. قفز الدكتور يسري - داخل نفسه - وصاح "أنا حيّ" سمعته ندى فاسرعت إليه تنفض عن جفنيها النوم. قالت "حلمت بك.. نمت قليلا فحلمت بك" قال:

"وأنا صحوت فحلمت بك"

وأضاف "وسأبقى حالما للأبد"

*

البحر

سأل السائق الزوجين السعيدين -وهما يغادران مكتب المأذون- ويستقلان السيارة "إلى أين" رد الدكتور يسري بوجه مشرق: "الغردقة" ثم نظر إلى ندى: "سنقضي شهر العسل في البحر" لم تصدق.. البحر؟! هل سترى ذلك المجهول الواسع الذي تسمع عنه؟ في الفيوم -حيث ولدت- بحيرة كبيرة تشبه البحر اسمها بحيرة قارون لم ترها أبدا فقد ولدت في الجبل.. في نجع بالجبل.. بعيدا حيث كانت أمها راعية غنم وأبوها فلاّحًا يصيد الثعالب لصالح المزارعين مربي الطيور. ورأى الأب الأم فأعجبته وتزوجها وهى في الثالثة عشر وأنجبا أخاها الذي رحل صغيرًا فكره الوالدان الجبل والعمل والبلدة كلها ونزلا إلى مصر وهي محمولة داخل قفة على رأس أمها ليعمل الأب في حديقة الدكتور. لقد ولدت على غير رغبتهما ومع ذلك أحبتهما.. أحبت أمها بوجه خاص.. تلك المرأة التي لم ترها فرحة أبدا كأنما قد ورثت الحزن أبا عن جد أو كأنما حزن الجبال قد سكن داخلها فلم تؤثر فيها سكنى المدينة

كانت "الحزينة" كما كان يسميها الزوج تكره الطب والحكماء وتردد على سمعها وهى طفلة عدّودتها التي لا تتغير أبدا حزنا على ابنها الراحل:

"جالو الحكيم في الزاوية جبناه

ومشيت على جَنَمي وركبناه

دخل الحكيم ع الصبي وبص له بالعين

جاله يا زينة الولاد أجيب دواك منين

يا حكيم طبّب وليدي وخد ميّه

طلع الحكيم وراسه مطاطيّة

يا حكيم طبب وخد ميتين

طلع الحكيم يخبط على الكفين

يا مّه اسنديني اعدليني عليكي

إياك رسول الموت يرأف بيكي

خرج الحكيم يركز على النّبوت

روّح بلادك يا غريب هتموت"

علا صوت بكاء ندى فلم تكن منتبهة أنها تردد العدودة بصوت

مسموع وهى بين اليقظة والنوم مسندة راسها على ركبة يسري في السيارة حين أمسك راسها فجاة بين كفيه يحدق في وجهها:

"ما هذا الذي سمعت؟ من أين لك هذا الكلام؟

قالت: امي.. تذكرت أمي التي ماتت حزينة.. تمنيت أن تكون معنا اليوم لترى ابنتها عروسا قد تزوجت. وتحول بكاؤها نحيبا فأخذ يسري يخبط على خدها خبطات خفيفة لكي يخرجها من الحالة وزعق: "لا احب ان ارى دموعك"

زعقت: "أمي لم تعش فلماذا أعيش أنا؟" لم تفرح فلماذا أفرح أنا؟

وفوجئت بكلام يتدفق منها لا تعرف كيف قالته:

"أمي ماتت مسمومة ولم تنقذها أنت.. لدغها الثعبان أمامك لم تسعفها؟ أنت ترعاني تكفيرا عن ذنبك لا حبا فيّ.. أنت تكرهني" استوعب يسري كلامها ثم قال بهدوء: "أكرهك أحيانا.. لكنني أحبك دائمًا"

ثم أخذ راسها في حجره وتركها تتكلم كما تشاء إلى أن هدأت ثم مسح دموعها وقّبل شعرها أمك ماتت قبل أن تموت.. لأنها رغبت أن تموت.. الثعبان الذي لدغها لم يكن سامًا"

زعقت: "أمي ماتت مسمومة"

شخط فيها "انصتي.. أنا أعلّمك"

كانت هذه أول مرة يشخط فيها. هل لأنها أصبحت زوجته؟ هل أصبح زوجا مثل سائر الأزواج الذين تسمع عنهم؟ هل سيعاملها كما كان أبوها يتعامل مع أمها؟ هل امتلكها؟ قطّبت جبينها وتعمدت أن يراه مقطبا وهمّت أن تخمشه كقطة تجرب أن تختبر أظافرها وصاحت فيه:

"قلت لي لا تكبري فلماذا تريدني أن أكبر؟"

رد بهدوء: "أنا أطلعك على قوانين الحياة لأنك أصبحت زوجة"

علا صوتها أكثر: "لماذا تطلعني على قوانين الحياة؟ لماذا تأخذني إلى قوانين الشيوخ؟"

لا تدري ندى كيف نطقت هذه الكلمة.. انزلقت سريعًا إلى أرضية السيارة تقبل ركبته وتقسم له أنها لا تقصد إنما هي زلة لسان إنما هو الشيطان الذي يريد أن يفسد عليها رحلة شهر العسل. رفعها برفق وابتسم بحنان:

"أنت لم تخطيء.. قد أكون شيخا بحكم السن لكنني أحببتك بقلبي الشاب"

"ما أن وصلا إلى الفرنكة واستقبلهما الهواء النقي ورائحة اليود حتى نسيت ندى أنها أصبحت في الثامنة عشر -حسب شهادة الزواج

انفلتت خارجة من حذائها تجري حافية داخل ممرات الفندق تبحث عن بابه الخلفي المطل على البحر غير عابئة بنظرات الموظفين والرواد وما أن لمحت البحر وشمت رائحته حتى أسرعت تهلل وتقفز في الهواء ثم ارتمت على الرمال الدافئة صدرها المحروم في الحرارة الكامنة تتملكها رغبة عارمة أن تتعرى تمامًا ثم أخذت تجمع المحار تنصت إليه وتوشوشه وتتسمع داخله صوت البحر وتقربه من أذن يسري الذي يتمدد بجوارها فيقول لها "إنه صوت الزمن"

في الغروب.. كانا يتمددان على رمال الشاطئ لا يتقلبان.. يودعان الشمس وينتظران القمر.. كان القمر يعرفهما.. هي تراه طفلهما الذي لم يولد وهو يراها طفلته التي لا تكبر تمر عليهما النسائم مَراوحَ ملكية تمس الخدود لا أكثر. فتمتد كفه إلى شعرها الطويل على كتفيها تسرحه وتمتد كفها إلى صدره تتحسس الكلمات التي يخفيها داخله.. لا يشبعان.. الحياة قصيرة يا يسري.. يهمس لنفسه.. ولولا أغنيات تمر في العمر سراعًا ولولا كلمات عزاء في سرادقات الأحزان ولولا أحلام الإنسان.. وتكمل هي شروده: ولولا أنك في حياتي ولولا أنك تحبني.. ولولا أنني شهية وجميلة ولولا أنك تملك العين البصيرة وتكاد تهمس.. لكن لماذا لا ينامان في غرفتين منفصلتين، اتخاف مني أم تخاف عليّ؟

لماذا لا يمس شفتيها بشفتيه؟؟ لماذا يحرم لسانها من تذوق

طعم لسانه؟ تسأله فيراوغ ويسألها: ولماذا تتخفين دائمًا في ظلال الأسطورة؟

فاجأته ذات ليلة لبياتهما منفصلين.. كان ساهرًا يستمع لموسيقى مـــوزار اقتحمت حجرته وظلت واقفـــة مكانها ويداها في خصرها تتهدج أنفاسها..

"أأنت نادم أن تزوجنا"

طلب منها أن تجلس على حافة سريره فجلست.. قال: "كان هناك رجل مريض يائس من الشفاء.. ذهب إلى المستشفى ليقضي أيامه الأخيرة، وتصادف أن كانت غرفته تطل على شجرة خارجها.. وكانت الريح نشطة تعمل على أن تسقط أوراق الشجرة يومًا بعد يوم وورقة بعد ورقة فقال لنفسه: إن أيام عمري الباقية بعدد هذه الأوراق الباقية وحين تسقط آخر ورقة ستكون نهايتي وسقطت الأوراق جميعها إلا آخر ورقة لم تسقط أبدًا.. وشفي الرجل وغادر سريره، وذهب ليرى سر هذه الورقة فاكتشف أنها ورقة صناعية ثبتها في الشجرة إنسان يحبه.

لم تشعر ندى بنفسها إلا وهي تقبل يديه وقد فهمت أنها هي الورقة الأخيرة. وأنه هو المريض.

***

حرصت ندى أن تدون ليالى شهر العسل في نوتة مذكراتها الخاصة حتى تستعيدها في ليالي الأرق حين تعود.

الغردقة

الأسبوع الأول من مايو (وكنت أرتدي ليسري زيًا بدويًا منقوشًا من أزياء أمي) وكنّا نجلس معًا في كافتيريا الفندق المطلة على البحر

"في الداخل كان صوت المغني الياباني يحمل حزن المعبد

وفي الخارج فرحة النوارس والأمواج

فكن طيرًا يا حبيبي أو موجة

قال: لأكن عابدا

يتجول في معبدك الخاص

يسأل كل العرّافات

أين رأيتك من قبل

وفي أي الأزمنة تلاقينا

يا من تتخفّين الآن في الزيّ البدوي

هل كنا في يوم ما رعاة غنم
أم كنا نعمل في نقل الماء من الآبار
يا من تحمل في عينيها أسرار الكون
وكل أساطير الأزمان

بورسعيد

الأسبوع الثاني (وكنت أرتدي له زي بحّار)
وكنّا في المطعم المهيأ أصلا للسياح نتناول الطعام معًا
"كان البحر قريبا جدا
ولا شئ هناك
سوى مقعدين اثنين
واصواتًا لاتبين
قال: "إنها أرواح الشهداء"
مضت خمسون عاما على تلك الحرب
التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من المصريين
تبعتها حرب أخرى

ولم يبق من ذلك الزمن

سوى الأنفاس الخافقة ومخاوف الريح"

قلت انظر هناك.. فالشمس تشرق من جديد"

ومضى يوم وليلة وجاءت شمس ورحل قمر وذهبنا للبحر

(وكنت أرتدي بنطلونًا قصيرًا)

جمعنا الأصداف وسرنا حفاةً في الماء الضحل.. واتسخت أقدامنا الحافية من مازوت السفن العابرة إلى ما وراء البحار.. غسلنا أقدامنا.. غسلت له قدميه وغسل لي قدميّ فشكرته أصابع الحلوى.

وفي المساء.. تهنا بين الأولاد والبنات الوافدين - الولد دائما بقصة شعر في وسط الرأس نافرة كعرف الديك والبنت تلف شعرها بمنديل - وما أن يحس البحر بقدومهم حتى تشتعل فيه الموسيقى وتمتد أصابعه زاحفة على الرمل فتبتل مشاعرهم فرحًا فنهض جميعا نرقص كلنا معًا"

الاسكندرية

الأسبوع الثالث.. وكنا نجلس على مقهى في محطة الرمل

(وكنت أرتدي جيبة قصيرة)

"قلت: أتشم روائح الطحلب واليود؟

قال: أشم رائحة العفن

فالطيور الجارحة أكلت كل طيور الزينة

كانت الإسكندرية فيما مضى

مدينة كوز وموبوليتان

تزخر بالأجناس وبالألوان

كان ترابها زعفران"

"لم يكن حبيبي سعيدًا

كان حزينا فأرحت رأسه على صدري فنام"

مرسى مطروح

الأسبوع الرابع والأخير (وكنت أرتدي تحت ملابسى المايوه)

"في المقهى الظليل

كانت الموسيقى عالية جدا

وتكاد تقارب صوت الموج

إلا أنا حين طلبنا من "أزهار" فتاة المقهى

أن تخفض صوت الموسيقى

كانت دهشتها أعلى.. وهي تؤكد لنا.. وتقسم

أن ليس في المكان موسيقى على الإطلاق!"

رحنا نزور الشوارع والأماكن نصادق الناس والأشياء.. لا ننسى شيئا

لكنه كان يتناسى دائما زيارة ذلك المكان الحجري المسمى متحف روميل

يقول: إنه ممتلئ برائحة الموت وبالأحلام المقتولة

عدنا إلى الفندق نتأهب للعودة حين سمعتُ صوت الريح تهز زجاج الغرفة هزا عنيفا كما لو كانت تريد أن تنبه أن هنالك شيئا ما مايزال ينقصنا.. قلت ليسري:

"أتسمع صوت الريح؟ هذه عواطف الصحراء"

قال: "هذه عواصف الصحراء لا عواطفها"

وكما لو كانت الريح تريد أن توازني كأنثى مثلها تحولت غاضبة تدفع باب الحجرة المغلقة تفتحه وتقتحم المكان.. تعلَقت بعنقه: "أريد أن أرى البحر الهادر في لقائه الحار مع تلك الريح كما رأيته في هدوئه.. أريد أن أولد ولادة فينوسية كما ولدت فينوس من زَبَد البحر"

أخذني إلى البحر.. مجدِّفين معا في الريح وحين وصلنا إلى الشاطئ" لم أعد قادرة على أن أتحكم في ملابسي أو شعري أو أي شئ أرتديه أمام أصابع الريح القوية.. خلعت ملابسي وقفزت إلى البحر بالمايوه وصحت: "هاهي فينوس تولد من زبد البحر. فتملكته رعشة مفاجئة خشية أن أغرق أو أختفي بين الأمواج الهائجة فأخذ يصيح بي كي أخرج لكني ظللت أطفو وأغوص وأرفع ذراعيّ وأصيح مستنجدة فقفز دون تفكير نحوي وما أن رأيته حتى خرجت من بين الأمواج وأنا أضحك وأجري على رمل الشاطئ ألوّح له أدعوه أن يلحق بي وما أن أتجه إليّ حتى واصلتُ الجري فأدرك أنني أداعبه كعادتي وفجأة تحول صوت الريح نواحًا تبعه موكب من النساء يتشّحن بالسواد ويتقدمن مولولات ماذا حدث؟ لقد ركب أبناؤهن البحر سعيا إلى حياة أفضل في دول الغرب فابتلعهم البحر "اقترضنا ثمن الرحلة آلاف الجنيهات كي تركبوا البحر إلى دول الأحلام.. الآن لا نريد شيئا نريدكم أنتم كما أنتم فقراء معدمين عاطلين بلا مال ولا مستقبل نريدكم عراة كما ولدناكم"

وتولول أخرى:

"كيف خدعتم؟ أي شيطان صوّر لكم الحياة طيبة كما اعتقدتم؟ أي فخ وقعتم فيه أيها الزغاليل صغار العمر صغار الفهم؟"

وتندب ثالثة وهي تشد شعرها المحلول كالمجنونة تخاطب البحر نفسه: "عاتبة عليك يا بحر.. عاتبة عليك لأنك مخادع غشاش تظهر

غير ما تبطن.. تعطينا الزاد والحياة وتبطن في قاعك الغدر والفناء لماذا.. لماذا؟" وترتمي رابعة تدفن نفسها في الرمل "ماتوا قبل أن يصلوا بميل واحد.. انقلب المركب.. قلبته الريح.. ماتوا أغرابا لا أرض ولا سماء".

غمرني الحزن والخجل بينما التزم يسري الصمت.. زم شفتيه وضم أصابع يده بينما الأم الثكلى ترتمي على صدره تنهال عليه ضربا بقبضتيها: "أعد لي ابني.. أعد لي ابني"

وظلت تضربه كالمجنونة وظل يتلقى اللكمات صامتا لا ينطق كما لو كان هو المسئول فعلًا عن موت الأبناء أو كما لو كانت تعرف أن بينه وبين الموت ثأر قديم.

*

مهموما عاد يســري من رحلة شـــهر العســل.. تطارده أشباح لا يدري مصدرها.. ويســمع في أذنيــه صفيرا متصلا كصفارات الإنذار تفصله عن أي أصوات أخــرى وأصبح يغلق غرفته على نفســه ولا يســمح لندى بالدخول بينما عادت ندى من نفس الرحلة ســعيدة بذكريات البحر والهواء واليود تحس كما لو كانت قد ولدت مــن جديد ولزمت غرفتهــا أيضًا لا تخــرج إلا لإطعام روبي أو ري الحديقــة ولم تحاول أن تدخل إلى حجرة يســري أو حتى تدق عليه معتبرة أنه مســتغرق في تأملاته. وكانت تترك له طعامه كما طلب منها في المطبخ وســيذهب ليحضره حيــن يجوع.. وكانت تفتقده بينما كان يســري متمددًا فــي ظلام غرفته يقرأ كتبا صفراء قديمة في السحر! حتى أوصلته قراءاته مع أرقه الدائم أن يلجأ إلى الشيطان نفسه يسأله المعونة وفي سبيل ذلك كان لا يستحم ولا يقلم أظافره تاركا شعره أشعثا ولحيته دون تهذيب وجسده نجسا! نفذ كل المطلوب وحضر الشــيطان.. وســأله عما يريد فأخبره أنه يود أن يفقد ذاكرته تمامًا.. ومرة واحدة لا تدريجيا فلا يذكر شيئا ولا يذكر أحدا على الإطلاق".

قال له الشيطان "اقتل الكلب الأسود". أسرع يسري إلى الحديقة ليلا في الظلام واتجه إلى روبي الذي اقبل يتمسح فيه فرآه أسود وحدق فيه فوجد له عينًا زرقاء وعينًا خضراء، ومع أنه رآهما من قبل حين كان جروًا صغيرًا إلا أنه استنكرهما وأطبق بيديه على عنق الكلب فخمشه روبي بأظافره وتخلص من قبضته وأخذ ينبح عاليًا فاستيقظت ندى وأسرعت إلى الحديقة فوجدت يسري -والذي لم تره منذ أسبوعين- في هيئته الغريبة بينما روبي ينبح تجاهه؟ لقد أخبرتها أمها يومًا ما وهي صغيرة أن الكلاب قادرة على رؤية الشياطين كما أن الطيور قادرة على رؤية الملائكة.. وأن الكلب لا ينبح ذلك النباح الغريب إلا إن كان من أمامه شيطانا رجيما! تناولت ندى مصباحًا وعادت تنزل إلى الحديقة فتعرفت بصعوبة على يسري الذي كان يقف محدقا بعينين ناريتين تجاه روبي الذي يواصل النباح.. نادت على الدكتور تتأكد أنه هو فلم يرد من المرة الأولى فكررت النداء فانتبه يسألها من أين جاء هذا الكلب ذو العينين الناريتين؟

"إنه روبي يا دكتور؟"

أشارت لروبي فكف عن النباح وأسرع يتمسح بها.. وبينما غادر يسري الحديقة متخبطا نحو السلالم بقيت هي مكانها برهة تهدئ روع الكلب قبل أن تسرع وراء يسري تقتحم عليه غرفته.. وقفت ندى أمامه تتأمله وهو يرتعش ثم مدت يدها إلى صدرها وخلعت

السلسلة الفضية ذات الحجاب الصغير الذي حضنتها أمها به وهى طفلة ليحميها وتقدمت من يسري تلبسه الحجاب فاستسلم لها كطفل فضمته بقوة وحنان وقرأت على رأسه المعوذتين "قل أعوذ برب الناس" و"قل أعوذ برب الفلق" ومسحت على رأسه.. واستعاذت باللـه من الشيطان الرجيم.

*

روبي

ماذا حدث لروبي؟

أصبح يقضي كل نهاره نائمًا تحت ظل أي شجرة في الحديقة غير راغب في الحركة فاقدًا الشهية للطعام.. شخص الطبيب البيطري حالته على أنها "اكتئاب" مرض العصر وأنه يصيب الحيوان كما يصيب الإنسان وسألها إن كان هناك أحد لديهم مصاب بالاكتئاب فأخبرته أن زوجها يعتكف في حجرة مكتبه يقرأ أو يكتب أو يتأمل.. فسألها عن هيئته هل يهملها؟

وما أن عادت إلى القصر حتى اقتحمت غرفته "لماذا لا تحلق لحيتك؟" "لماذا لا تغير ملابسك؟" وظلت تلاحقه بالأسئلة حيث قفز إلى ذهنها مرة أخرى كلام رشيدة في التليفون "ستنطفئ مصابيح رأسه تدريجيا إلى أن يموت" فاعتبرت هذا الاكتئاب تمهيدًا للموت فأمسكت يسري تهزه تستحثه على النهوض

"هيا إلى الحمام. خذ دشًا منعشًا فسنخرج معًا.. أم أنك لا تريد أن تقدمني للمجتمع كزوجة؟

كان يسري في حاجة فعلًا لأن يخرج من نفسه ففعل ما أملته عليه "ندى" وما أن نزلا إلى الحديقة ومر على روبي حتى رفع يده يحييه كأنه يعتذر له فانتفض روبي واقفًا يهز ذيله وينبح بصوته القديم يخرج كل ما كان مختزنًا في صدره من كآبة وضيق.

***

في مطعم الجريون بوسط البلد بدأ يسري جولاته مع عروسه.. رحب بهما صاحب المطعم ترحيبًا كبيرًا والتف حولهما الجرسونات وهما يجلسان في الحديقة الملحقة وقدم "ندى" للجميع كزوجة وكمحبوبة وأصر صاحب المطعم على الاحتفال بهما وراح يعد تورتة فيها شمعتان اثنتان فطلب الدكتور ضاحكًا أن يجعلهم أربعة فـ"ندى" شمعة وهو "ثلاث شمعات حسب السن! وما أن وضعت التورتة بالشمع المضيء أمامهما والتف حولها الحاضرون حتى فوجئوا بامرأة عجوز تسحب جسدها مترهلة تقتحم المكان تطفيء الشموع وتصرخ بكل الصوت وبكل الحقد تخبرهم أن هذا الرجل الضال يعاشر هذه الفتاة الضالة متحديًا كل الأديان إذ هي ابنته أنجبها من البدوية الشابة زوجة الجنايني الذي كان يعمل عنده منتهزًا فرصة أن الرجل كان مريضا وأن الزوجة محرومة حتى مات الزوج كمدًا وماتت الزوجة مسمومة مشكوكا في أمريهما ثم هجمت "رشيدة" على الدكتور تحاول خنقه لكن الجرسونات أسرعوا وسحبوها بعيدًا وأخرجوها من المكان.

استمرت جولات الدكتور مع ندى طوال شهر يصحبها من مكان لمكان فلا يلتقي إلا بالحاسدين أو الكارهين، ففي النادي النهري مثلًا تقدم منه طبيبٌ فاشل وشامتٌ يسأله وسط أصدقائه:

"هل صحيح تم الاستغناء عنك في وزارة العدل؟

رد الدكتور: "صحيح.. اقالوني"

لماذا؟

"لأنني أحب"

وفي النقابة تقدمت منه صحفية دميمة فاتها قطار الزواج تسأله مشيرة لندى:

"ما اسم ابنتك؟"

"اسمها زوجتي"

وعلى مقهى الشاطئ

يتقدم منه صديق قديم ماجور يحاول أن يعانقه فيبعد يسري وجهه عنه معتذرًا بأنه حساس فيسأله الرجل محاولًا التشكيك

"لماذا تزوجت سرًا ولم تدع أحدًا إلى فرحك؟ فيجيب يسرى:

"خفتُ أن تحضر"

نبهته "ندى" إلى أن عدد الكارهين والحاسدين له ولها يتزايدون ويعملون لحساب "رشيدة" وطلبت منه البحث عن أماكن أخرى تضم المحبين والعشاق فقادها إلى نادي التوفيقية والذي هو عضو فيه فله هناك أصدقاء قدامى ويأمل ألا يكونوا قد تحولوا مثل عابد المتيّم وأصبحا هو وهي يترددان على النادي يوميًا.. هو يجلس مع أصدقائه متحاشيًا الحديث عن الماضي وعما كان إذ هو عريس جديد ينظر للمستقبل فيتمنون له السعادة ثم يمارسون لعب الطاولة فيعتذر عن مشاركتهم فهو لم يتعلمها "إذ لا ينوي أن يحال إلى المعاش" وهكذا يتضاحكون وهؤلاء الأصدقاء رغم أنهم عواجيز إلا أنهم مرحون إذ يمارسون السباحة كل يوم صباحًا قبل لعب الطاولة والجلوس في الشمس ثم يتناولون الغداء معًا وكان "يسري" يتقدمهم دائمًا في ماراثون السباحة حين يتسابقون تشجعه "ندى" حين تكون موجودة لكنها تكون في الغالب في الجامعة يوصلها بنفسه كل يوم ثم ينتظرها في النادي لتناول العشاء معًا بعد انتهاء المحاضرات ولا ينسى آنذاك وهما على المائدة أن يعلّق كل مرة على ضمور حجم قطع "الاسكالوب" يومًا بعد يوم أو "تقلص أصابع المكرونة" أو حتى "هجرة الخيار" من طبق السلطة أمّا الفراخ فكانت تحافظ دائمًا على الرجيم! كانت تحب أن تستمع إلى تعليقاته إذ بات لا يترك شيئًا دون إبداء ملاحظاته كما لو كان يرى تفاصيل المجتمع من جديد وما أن يعودا إلى البيت ليلًا حتى تعطيه ندى تقريرًا يوميًا

عما فعلته في الجامعة. وكيف حاول بعض الطلبة والطالبات ضمها إلى جمعياتهم السرية أو المعلنة فاعتذرت، وأنها لا تسير ولا تجلس ولا تأمن إلا لصديقتها مريم والتي من أجلها دخلت قسم فرنساوي بالكلية فكل منهما تحب الأخرى دون غرض أو مصلحة منذ تزاملا في الليسيه.. وكان الدكتور يروق له أن يساعدها في المذاكرة رغم أنه لا يعرف من الفرنسية إلا قليلًا لكنه يكابر.. هي تقرأ له الأشعار وتترجمها بينما هو يزاحم في محاولاته فهم تلك الأشعار وحين يصيب المعنى تسأله "كيف فهم؟" يخبرها أنه "الإلهام" ويغمض عينيه فتنتظر منه قبلة تتم سريعا على خدها فتواصل قراءة الأشعار بحماس حتى يناديها النوم فتغادر غرفة المذاكرة لا تنسى أن تهمس له: "هل ستغطيني؟" فيرد مبتسما نعم. ولا يذهب

***

فـــي الإجازات حين لا تذهب نـــدى إلى الكلية أو يذهب هو إلى النادي يقضيان اليوم في المطبخ يتعاونان في طهو الطعام.. يرتدي كل منهمـــا المريلة ويحاول أن يبدو خبيرًا كـ "شـــيف".. ويقضيان المســـاء في مشاهدة التليفزيون حيث تختار له - وهى معه - برامج المـــرأة أو طهو الطعـــام أو المحطات التي تقدم الأغاني الشـــبابية المرحة ســـريعة الإيقاع أو تبحث لـــه عن قصائد نزار قباني مغناة بصوت كاظم الساهر أو نجاة والتي تمجد الحب وعشق الحياة تسأله

عن بعض معانيها مدعية أنها لا تفهم جيدا في اللغة الفصحى وكانت تتحاشى أن تضع في طريقه أي أغنية فيها حزن أو شكوى أو نواح من تلك الأغاني المصرية التي تزخر بالآهات والدموع.. كما كانت تسأله -أثناء مشاهدتهما- لبرامج طهو الطعام عن أي الوجبات يحب أن تطهوهـــا له كما تمازحه أثناء عروض الأزياء مدعية أنه ينظر إلى أجســـاد العارضات أكثر مما ينظر إلى أزيائهن وكان الدكتور يسري يتقبل ذلك بمرح حتى أصبح يسخر من هاجس الموت الذي كان يشـــغله وحتى حكى لها ذات يوم عن موته بطريقة هزلية فقد تصور يوما أنه استغرق في النوم فظنوه ميتا وحملوه إلى المقابر.. فاعترضته ندى متسائلة وأين كانت هى حين حملوه؟ فلم يرد وأكمل الحكاية: ثم أنهم وضعوه في قبر ضيق مظلم وأحكموا عليه الغطاء ولما أحس بضيق النفس وبقرب نفاد الأوكســـوجين اســـتخدم يديه ورجليـــه في دفع غطاء القبر لكي يخـــرج.. واعترضته ندى مرة أخرى.. وأين كانت هى لكي تســـاعده؟ فلم يرد واستكمل أنه خرج وظل يجري ملفوفا في كفنه في الشـــارع يظنه الناس أنه ذاهب إلى الحج إلى أن وصل إلى القصر فاقتحموا عليه القصر يريدون حمله وإعادة دفنه حرصا على التقاليد فصرخ فيهم أنه حي.. وأنهم دفنوه وفيه الروح "فلم ينتبهوا أنك بداخلي حية"!

ولما اطمأنت "ندى" إلى متابعته البرامج التي اختارتها له اطمأنت وأصبحت تتركه وحده.. ومع الوقت أخذ يسري يعبث بقنوات التليفزيون

راغبا في التغيير إلى أن رأى وراعه ما رأى.. لقد رأى الموت في أبشع صوره يستعرض القتلى أمامه على كل القنوات: الدم والصراخ والأشلاء ودفن النســـاء والأطفال أحياء... رآه خارجا من المدافع ومحلقًا فوق الرؤوس مع الطائرات ومسافرا عبر الصواريخ داخلا حتى البيوت: القتلى مائتان وخمســـون ألف قتيل ومائتا ألف مشوه وســـتة ملايين نازح.. يصرخ الدكتور: وعدد السامعين كم؟ وعدد الرائين كم؟ وعدد النائمين المستغرقين كم؟ وعدد المستفيدين العاملين لحساب الموت كم؟ ولم تنتبه "ندى" وهى تحمل إليه الطعام إلا على ثورته وهو يكسر شاشة التليفزيون

"ماذا حدث؟" تصيح ندى

"إنه هو يطاردني من الشاشة"

قالت تهدئه وتربت على كتفه:

"لتأكل أولا".. أبعد يدها: "وهؤلاء الأطفال من سيطعمهم؟"

قالت: في صوت متحشرج:

"هناك طائرات تحمل لهم الطعام"

"لكنها لا تهبط "لا تهبط أبدًا" تحوم ولا تهبط أين الرحمة؟"

وتقدم نحو التليفزيون وقد تغير صوته حتى لكأنه شخص آخر

ســقطت صينية الطعام عن يديها وهي تــراه يوجه حديثه إلى شاشة التليفزيون المكسورة "أيها السادة.. أنا الدكتور يسري الراوي إخصائي المخ والأعصاب.. لقد قمت بتشــخيص السبب الأساسي لشــقاء الإنسان.. إنه عقله الذي استنفد كل طرق القتل في المعارك والتعذيب في السجون والصلب والحرق والذبح والتقطيع فوجدوها كلها مؤلمة غير شــافية وغير كافية أما أنــا كمتخصص في المخ والأعصاب فوجدت الدواء الناجع: إنه "الموت الرحيم" الحقنة التي تعطي للميئوس منه تخلصه من عذابه وآلامه وصولا للراحة التامة.. ستميتكم بســرعة وهدوء وحنان ومجانًا أبشروا فقد تبرع الأثرياء لصالح الفقراء والأقويــاء لصالح الضعفاء والدول الكبرى لصالح الدول الصغرى بثمن هذا الدواء الناجع كحل لســلام دائم.. أتمنى لكم نوما أبديا والسلام"

*

قضى الدكتور يسري أسبوعين في السرير مريضا يهذي.. تتقلص عضلات جسمه وترتجف أعصابه محدثة شكات كهربية حادة في أصابع يديه وقدميه تجعل نومه صعبا حتى بات ينام بالحبوب المهدئة ممسكا بيده يد ندى التي تسهر لرعايته كأنما يستمد منها الشفاء بينما كانت وهي تراقب وجهه يعاني من الكوابيس أثناء النوم تحتار أتتركه نائما أم توقظه وكانت تفضل أن تتركه فيقظته مؤلمة أكثر من نومه إذ كان يتحدث أثناء النوم بكلمات تكاد تكون مكررة فكان يردد "لاعب النار قتل ابني" أو "الأجنة في بطون الأمهات تتحول شياطينا" حتى وصل إلى أن أصبح يردد "الجيل القادم مات"

***

"هل أحضر لك خمرًا؟"

كانت هذه أول مرة تحدثه ندى عن الخمر وتدعوه بنفسها إليها

التفت لها مندهشًا: وكان قد بدأ يبرأ: "لماذا الخمر؟"

"اسمع أن لها تأثيرًا مبهجًا"

صمت.. فنهضت وارتدت ملابسها، وقصدت سوقًا كبيره "سوبر ماركت" لا يعرفها فيه أحد وأحضرت عددا من علب البيرة الدنماركية أخفتها بين بضائع أخرى حتى لا ينتبه السائق وعادت، وأصبح يشرب كل ليلة.. وأصبحت تشجعه ثم لم تعد البيرة تسكره أو تصل به إلى حالة الانتشاء فتحول إلى "الويسكي" ثم إلى "الكونياك" حتى وصل إلى "الفودكا" ثم انقلب عدوانيًا شديد العدوانية حتى صاح بها ذات ليلة "أنت سبب شقائي.. سأقتلك لأستريح". كان ساعتها ممسكا بالسكين يقشر به التفاح فوجهه إلى صدرها واستسلمت له: "هيا اقتلني لكي أستريح أنا أيضًا" ارتخت يده بالسكين ثم بكى وظل طوال الليل يبكي حتى نام وبعدها لم يعد يسمح لنفسه ولا سمحت له بالاقتراب من الخمر.

***

ما أن شفي الدكتور يسري حتى جاءه "عم عبده" البواب يخبره أن هناك ضيفين في الخارج يريدان مقابلته أحدهما محام يدعى "عابد المتيم" والثاني يدعى "عايش العريان" وعلى الفور نهض الدكتور يسري الذي كان يجلس أمام حوض السباحة واقفا "أدخل عايش العريان" لا تتركه احمله حملًا حتى لا يهرب واطرد "عابد" المال هذا المتيم بالضلال.. لكن المحامي زاحم ودخل قبل عايش وأسرع تجاه الدكتور ينحني أمامه: "جئت أعتذر لك" رفض يسري

اعتذاره وطلب منه مغادرة المكان فورًا فقد خدع فيه طوال ثلاثين عامًا ونادى البواب ليطرده

قال عابد:

"لي ظروفي الخاصة" التفت إليه الدكتور بحدة:

"وأنا لي قناعاتي الخاصة"

علا صوت عابد فجأة: "أنت لم تنجب ولم تجرب ضعف الآباء أمام الأبناء"

تقلصت عضلات وجه يسري وهب واقفًا: "أخرج من بيتي أيها الحيوان"

تشنج عابد "لن أخرج قبل أن تسمعني" وأخذ صوته يتحشرج بالبكاء:

"ابني يتهمني أنني فاشل.. أعمل طول عمري كالثور ولم أنجح في امتلاك فيلا أو حتى شقة في حي راق.. الشقة والمكتب بالإيجار.. ما أزال أسكن في حي الوراق الشعبي بينما أندادي من المحامين انتقلوا إلى الفلل والقصور في الرحاب وفي التجمع الخامس.. ابني ضحية إعلانات التليفزيون وهذا العام ما أن حصل على الثانوية العامة حتى فوجئت به يطلب مني أن أقدم له في الجامعة الأمريكية حتى يهاجر أو يضمن عملا في المستقبل.. وأنا لا أملك المال ولا الوساطة لهذه الجامعة المقصورة على أبناء الأثرياء والمشاهير لجأت إلى طليقتك الدكتورة رشيدة التي عرفتها - من خلالك - فهي تحمل الجنسية الهولندية ولها علاقاتها بموظفي السفارة الأمريكية

ويمكنها أن تكون واســطة قصدتها فرحبت بي بل وأمدتني بالمال كسـلفة مشترطة أن أدافع عن حقوقها.. لم أكن أعرف أنك ستكون الخصـــم.. لقد تورطت.. ابني ورطني وهـــي ورطتني فلتقف أنت إلى جانبي"

لم يدرك عابد المتيم أن يسري الراوي يشحن غضبه إلا حين نظر تجاهه فوجده يبصق في الهواء بقوة وقد علا صوته زاعقا ينادي على "عبده البواب" أدرك عابد أن الأمور ستتطور فأسرع يغادر المكان لاعنًا كل أطباء المخ والأعصاب الذين هم كمرضاهم مجانين

تحول يســري إلى "عايش العريان بوجه مختلف تمامًا تكسـوه ابتسامة عريضة أدهشــت عايش والذي كان ينتظر غضبًا مماثلا وحين اطمأن أخذ ينظر إلى الدكتور بعين.. وينظر بالعين الأخرى إلى التفاحة الحمراء الأمريكاني على المنضدة والتي لم يســبق أن ذاقها بينما تتجول عينه الثالثة الطموحة في المكان أمامه وحوله:

"هذه هي الجنة يا عايش.. القصر والحديقة وحمام السباحة والطعام الفخم وما أن أتاه صوت ندى تقف على البسطة العليا تنادي روبي حتى اكتمل أمامه شكل الجنة.. ووجد نفسه - دون أن يعي - يهب واقفًا فسأله الدكتور: "لماذا وقفت؟" ودون أن يدري غمغم: "احتراما للمرأة يا سيدي" ثم انتبه إلى أنها تتبع الدكتور فتلجلج في الكلام ثم جلس يحكي:

"حين لبست البدلة الجديدة وأمسكت الموبايل أحسست أنني محترم..

فركبت الميكروباص وقصدت القرية تهت عنها في البداية لم تكن هذه أبدا قريتي المرسومة في ذاكرتي حين تركتها صبيًا.. البيوت الطينية حل محلها بيوت أسمنتية.. الأزياء الجديدة للرجال ظهرت بين الأهالي حتى لم تعد بذلتي تثير أحدًا بل أن القرية الصغيرة قد اخترقها كوبري مسفلت طويل يصل إلى الطريق السريع ويشق القرية نصفين -أقيم منذ أعوام-.. قالوا إنه من عطايا عضو مجلس الشعب الذي كان الصديق الشخصي للرئيس الأسبق مبارك قبل أن يموت بالسرطان.. أقامته الدولة ليصل إلى قصره الخاص على مشارف المدينة هذا عدا تلك العناكب المنتشرة المسماة بالتوك توك. نسيت أن أقول لك أن أحدا لم يعرفني في القرية ولم يسألني أحد من أكون ولا حتى اهتم لي أحد وعلمت أنهم لا يهتمون إلا بالمتعهد الذي يتيح لأبنائهم السفر إلى أوروبا. سألت إحدى العجائز عن الشيخ مصباح ردت: "لعنة اللـه على مصباح وعلى كل المصابيح التي على شاكلته.. لقد رحل منذ سنين طويلة بعد أن كُفّ بصره وأصيب بالعمى عقابا له من اللـه على ما فعله مع تلك الأرملة الغجرية التي كان يعاشرها سرا والتي ألقت إليه بمولودها على كوم السباخ وهربت

كاد قلبي يتوقف -يواصل عايش حكايته للدكتور- سألت العجوز: وأين ذهب هذا المولود البائس؟ قالت: "تلبسه الشيطان حين كبر حتى ضبطوه مشبوكا مع عنزه فطاردوه ولكنه هرب".

حينها تأكدت أنها تتحدث عني أنا دون أن تدري وأنني ابن الشيخ

مصباح وأن تلك الغجرية أمي. تركت القرية وتركت عملي عند "عابد" وشرعت ابحث عن ابي وامي.. تجولت في كل الموالد.. مولد الحسين ومولد السيدة زينب والسيدة نفيسة وماري جرجس والعدرا.. كنت كمن يبحث عن إبرة في كومة تبن وأخيرا عثرت عليه في المقابر يعمل حفارًا للقبور في عين الصيرة لكنه أنكرني وحاول دفني فهربت.

اطمأن الدكتور إلى معنويات عايش ففكر في إعطائه المزيج حالا فالزمن ليس في صالحه ولا في صالح الدكتور ولا في صالح ندى فالثلاثة يتهددهم الموت.. سأله الدكتور عن معنوياته قال: لقد وقعت في الحب يا دكتور.. "هربت من ظلام المقابر إلى النور ووصلت إلى مقهى يسهر حتى الفجر فجلست وطلبت كوبا من الحليب وأخرجت من جيبي باكو بسكويت وبدأت أغمس وإذا بيد رقيقة كبدن عصفور تحط على كتفي تمسه لا أكثر.. اعتقدت أن أحدا ينبهني أن أغادر المقهى لإغلاقه لكن ما أن التفت حتى فوجئت بفتاة رقيقة الملامح شاحبة الوجه تبوس كتفي رافعة عينيها الحزينتين إلى في ضراعة كأنما تبتهل إلى معبود، سقطت البسكوته من يدي داخل كوب اللبن وتسمرت عيناي على ذلك الوجه الملائكي الشاحب واختلط علي الأمر فظننتها في البداية ملاكا جاءني عزاء لحالي ثم تنبهت إلى أنها إنسية.. لم تكن امرأة ولا كانت صبية وفي هدوء قطة تفتقد الدفء جلست على المقعد المقابل لي.. رأسها بين كفيها تتأملني وأنا أتأملها..

ظننتها خرساء ولما طال الصمت خرج صوتها هامسا:

"ما اسمك؟"

قلت في خجل "عايش العريان"

ابتسمت: "ألم تكتسِ بعد"

قلت مداعبا: "لا أجد من يكسوني"

مدت يدها تضع في فمي قطعة بسكوت تطعمني

"اختر لي اسما"

أليس لك اسم؟

قالت: "لي كل يوم اسم، اختر لي أنت اسما دائمًا"

قلت: مَلَك

اتسعت ابتسامتها:

"أنا لست مِلاكا كما تظن اختر لي اسما آخر"

قلت كمن أُلهمت: "شروق" وتناولت قطعة بسكوت وأطعمتها

كانت الشـــمس قد بدأت تشرق وتلقي بشـــيء من أشعتها علينا وحزنت أن يكون هذا الجمال الشاحب وهذه الطيبة تسهر الليل تبيع المناديل

"أنا اتسلى" كانت تزداد غموضًا كلما تكلمت

"لابـــد لك من مصدر رزق آخر" أشــــارت للســـماء ثم نهضت وابتسمت وهي تغادر ملوّحة فنهضت أمد يدي نحوها أود لو أمسكها "متـــى أراك ثانية؟" قالت: "أبحث علي" واختفت عن بصري. لقد أحببتها يا دكتور؟

"نعم.. أحيانًــا تختزل الرحلة كلها في لحظة" ونهض واقفا كي يحضر حقنة "المزيج" مستغلًا معنويات عايش العالية لكن "عايش" عاد وجهه يكتسي بمسحة من الحزن وهو يغمغم: لكنها هربت.. كما انني بتّ لا أثق في شــيء ولا في أحد يا دكتور بعد ان رايت وجه الحياة القبيح خلال عملي لدى عابد المحامي وما رايته من محاولة أبي قتلي.. لقد تخلى عني الحظ

قال الدكتور لنفســه: هذا العايش بهذه الأحاسيس المتضاربة لا يصلح للحقن الآن وعليه أن ينقيه أولًا من تلك الشــوائب: "حدثني عن حبيبتك شروق" لماذا سميتها هذا الاسم البديع؟

"لأنها أشرقت على مع شــمس الصباح وأكمل: لكنها كالشمس غابت" قال الدكتور يبث فيه الأمل:

"ستشرق من جديد؟"

أحس عايش أنه يحب الدكتور وأن الدكتور يحبه فقال في سذاجة "أنا فرحان"

إذن ليكن اسمك من الآن "فرحان" لا مجرّد عايش

وما أن انصرف حتى أقبلت ندى تســال عن هذا الوافد الغريب قال يسري: "عاشق جديد"

*

شروق

في حجرتها القديمة بالفندق الرخيص بوسط البلد تمددت شروق في سريرها الحديدي كالح اللون فوق الحشية المتهرئة هادئة تنظر إلى السقف تعبر أمامها الأشياء ظلالًا والزمن خيالًا وحياتها كلها احتمالًا.. إنها في حال السكينة

يقول قلبها المطمئن: "وهبني اللـه هذه السكينة كمنحة بعد مشوار من القلق والمعاناة والصبر الجميل"

تحسها: كأكف حانية تربت عليها تغطيها في الليل حتى لا تبرد وتوقظها في الصباح حتى لا تموت وتحممها داخل وعاء دافئ صغير تغتسل فيه من جراحها.

تشبّهها: كتلك القبلة الهادئة الخالية من الرغبة أوالغريزة أو الأنانية والتي تحط بها شفتاها على أكتاف الساهرين في مقاهي الليل.

تراها: كريشة عبثت بها الريح طويلا وآن لها أن تستريح

تتعزّى: أخيرا أقبلَ الحبّ يا شروق

وفجاة بدّد سكينتها الصوتُ القبيح المزعج من ذلك الرجل عابس الوجه يقتحم الغرفة دون خبط أو استئذان ينبهها: "عليك إخلاء الغرفة حالًا فهناك وافد جديد"

وما أن اختفت صورته حتى بصقت في الهواء الذي تنفسه. هذا الكلب ابن الكلب حاول مرارا أن يستبقيها في هذا المكان مقابل خدمة الزبائن لا بيديها وإنما بجسدها الهزيل.. أن يكسب من ورائها مقابل الإقامة مستغلا ظروفها. فكرت شروق في الانتحار قبل أن يعود إليها ثانية ليطردها إلى الشارع حيث تبدت لها الدنيا ضيقة كهذه الحجرة معتمة مثلها هواؤها فاسد كهوائها.. مقبرة محبوكة لا منفذ فيها.. لماذا تنتظر وماذا تنتظر.. ألم يقرر الأطباء أن أيامها على الأرض باتت معدودة وأنها لن تكمل العام؟

تقول لنفسها: "أن أموت شابة هكذا ومرة واحدة خير ألف مرة من عذاب الانتظار" لم تعد تتعرف على اسمها الذي غادرت به القرية منذ سبعة أعوام وهي في السابعة عشر كان اسمها تقريبا فاطمة قبل أن تتحول إلى العديد من الأسماء والعديد من النساء حولتها شوارع القاهرة بعد طلاقها إلى "كلبة" تطاردها كل كلاب الليل بينما هي تبحث عن لقمة أو عظمة أو مأوى.. عملت المستحيل حتى لا تهان لكنها أهينت وقُتلت وقَتلَت.. قَتَلت بهاتين اليدين اللتين كان يقبّلهما الزوج في بداية حياتها في القرية.. ذلك الرجل - الذي لا تحب تذكر اسمه - والذي كان يعرف أنها تزوجته هربًا من زوجة الأب القاسية. عاشا معا.. لم يحبها ولم تحبه رفض جسدها جسده ورفضت أنفاسها أنفاسه الكريهة فلم تحمل منه -رغبة لا عجزا- حتى صرخت أمه "إنها عاقر فطلقها. باست رجله ليبقيها ولو خادمة فرفض واستكتبها ورقة تنازلت بها عن كل حقوقها فاستحمت وحملت الله في قلبها

والبؤجة الصغيرة في يدها لا تحوى غير غيار يوم واحد ونزلت القاهرة تتجول في الشوارع الواسعة نهارا تتسول قوتها وليلا تتسول نومها.. لا مأوى غير المقهى الساهر تغفو على مقاعده حتى الصباح وتبيع المناديل لحساب امرأة عجوز مقابل الطعام.. شبهها واحد من الفنانين التشكيليين العاطلين على مقهى زهرة البستان - وسط البلد - بالجيوكندا وطلب أن يرسمها مقابل مبلغ من المال يسدده بعد بيع اللوحة ففرحت لكن شاعرا شابًا يجلس قريبا منه يخفي عينيه تحت شعره المتهدل حذرها: لا تذهبي فهو يريد أن يراك عارية فأجفلت بينما ابتسم لها آخر وسألها عن اسمها فقالت "منى" فأسرع ينشد "كأرض أورشليم/ ودمعة اليتيم/ في الطهر والصفاء/ عيناك يا منى" كادت تداعب شعره امتنانا رغم أنها لا تفهم الكلمات لكن صوته كان رخيما وهو ينطق اسمها كأنه صادق إلى أن تدخل شاعر عجوز ناداها وأخبرها أن هذا الشاعر نصاب يعيش على إغواء البنات بالشعر المسروق وما أخبرها به إن هو إلا شعر شاعر قديم رحل وأن هذا النصاب يعمل صحفيا مراسلا بالقطعة ينقل كل ما يكتب جاهزًا من داخل ذلك الجهاز المسمى "لاب توب" وشرع هو - العجوز - يتغزل فيها مقاوما السعال فتركته ولم تعد تثق في الكلام المزوق بعد أن اكتسبت شيئًا من خبرة الفرز بين المزيف والأصيل من نبرة الصوت ونظرة العين وإن كان هذا لم يصدق معها دائمًا.

حين ذهبت إلى الطبيب للمرة الأولى منذ أربعة أعوام تشكو

الهزال سعيا إلى بعض المقويات طلب منها تحليلا للدم إذ شك في وجود "فيروس c" وسألها إن كانت مشتركة في التأمين الصحي ولما أخبرته أنها غريبة لم تسمع عن هذا التأمين من قبل قال لها: للأسف هذا المرض شرس وليس له علاج ناجع حتى الآن وعلاجه المتاح هو الأنترفيرون وهو دواء غال ومكلف لا يصرف إلا عن طريق التأمين الصحي وفي التأمين أخبروها أنها لابد أن تكون عاملة بالدولة ولها مرتب ثابت علاوة على موافقة من القومسيون فأسرعت تعالج نفسها بنفسها بالأعشاب لدى أحد العطارين إلى أن اقترحت عليها العجوز التي تبيع المناديل لحسابها أن تلجأ إلى عظام الموتى تصحنها وتسفّها وحين أبدت خوفها قالت لها "الحي أبقى من الميت" و"ياروح ما بعدك روح" فاتجهت إلى المقابر لعلها تجد عظمة ملقاة وهناك اغتصبها مدمن. حاولت الجري ظنًا أنه شبح لكنه أوقعها وبرك فوقها ولم يتركها إلا شبه كسيحة. لملمت ثيابها وذعرها وجرت ولم تخبر أحدًا حتى المرأة العجوز.

ولما أمكنهـــا توفير بعض المال ذهبت إلى طبيب آخر كشـــف عليها باهتمام وأخبرها أنها ليســـت مصابة بفيروس ســـي وأن من أخبرها بذلك جاهل أو فاشـــل!! ففرحت لكنها لاحظت- بعد حادث المقابر نزفًا يوميًا فذهبت إلى المستشـــفى المجاني فسألتها الطبيبة إن كانت متزوجة فلم تجد بدًا من أن تجيبها بنعم فنبهتها إلى أن هذا النزف من أثر الممارسة الجنسية الحادة نتج عنها جرح في الداخل وصرفت لها مطهرات وكتبت لها على أدوية طلبت منها المداومة

على اســتعمالها حتى لا يتحول الجرح إلى قرحة دائمة كما طلبت منها الاهتمام بصحتها والتغذية الجيدة وحين علمت أنها تبيع المناديل ليلًا نصحتها بعدم السهر أيضًا!

كيف؟ وإن لم تسهر وتبيع المناديل فمن أين تأكل! ثم إن الدواء الذي طلبته الدكتورة وطلبت المداومة عليه غالي الثمن كما عرفت فمن أين تأتي بثمنه والعجوز التي تعمل لحسابها امرأة قاسية حاولت مرارًا أن توقظ فيها حنان الأم أو حتى شفقة الحيوان ففشلت وظلت فاطمة تجري من المجهول إلى المجهول - مهملة جرحها - أو على الأصح متعايشة معه إلى أن أشفق عليها أحدهم كي تعمل عند صديق له في الكافتيريا التي يملكها

كانت زوجة صاحب الكافتيريا شابة وجميلة أحبتها.. تجلس الزوجة أمام الآلة الحاسبة تتولى المسائل المالية بينما زوجها يتولى الإدارة وهي تقوم بتوصيل الطلبات. قربتها الزوجة منها أمام الزوج وقربها الزوج منه من وراء الزوجة وأغراها بشقة واسعة في حلوان بعيدًا عن زوجته التي يعيش معها في الدقي لكنها رفضت الخيانة فطردها وجاءها صاحب المقهى الذي توسط لها يلومها مدعيا أنها خانت الأمانة كما أخبره صديقه وأنها حاولت إغراءه فأسرعت إلى المصحف الشريف تضعه على عينيها تقسم أنها بريئة ولم ينفع الحلفان وعادت للشارع لتبحث عن عمل آخر. عملت في مكتبة اتضح أنها تبيع الشرائط الجنسية بعد وضع وجوه الفنانات المصريات على أجساد نساء أجنبيات عاريات وضبطت المكتبة وسجنت هي أربعة

أيام ثم خرجت وعملت في محل خمور كان يقصده الشاعر النصاب يلاحقها إلى أن أصيب في أعصاب عينيه واكتشفوا أن الخمر مغشوشة وأغلق المحل فعادت تبيع المناديل بعد ان أدركت أن ليل المدينة لا يسهر فيه إلا القطط الضالة والكلاب المسعورة.. لقد هاجمها ذلك الكلب المسعور وهي في المقابر كوحش يمزق فريسة.. أوقعها على الأرض وأخذ ينهش في جسدها بأظافره وأسنانه حتى كادت تموت تحته.. هي تصرخ وهو يلهث.. كان من الشراهة حتى أنه لم يسترح ولم يترك لها ولا له فرصة استرداد الأنفاس ثم حين أفاق فتشها وأخذ كل ما معها من نقود.

فكرت في الزواج من صبي قهوجي - أصغر منها سنًا- لكنه مستقر في مسكن.. غرفة تحت السلم.. رأتها ورغم أنها رطبة ومظلمة إلا أنها أفضل من التوهة التي هي فيها.. لكنها عادت وخافت إذ سألها ذلك الصبي إن كانت بكرًا؟ فهربت منه ومن المقهى الذي يعمل فيه.. ثم انتبهت فجأة إلى شيء رأته كالحرية أو كأنما هو الحرية نفسها.. شيء لم تنتبه إليه من قبل! إنها تملك كنزًا داخل هذا الجسد المرغوب.. الجميع ينظرون إلى جسدها مركزين على جزء واحد لا يرون بقية الأجزاء.. بينما بقية الأجزاء هذه والتي هي ملك خاص لها ثروة. وحين عرضت الأمر على العجوز هللت ووعدت أن تساعدها.. وهكذا قررت فاطمة أن تبيع إحدى كليتيها!

قالت لها العجوز: خمسون ألف جنيهًا على الأقل

لم تصدق فاطمة.. خمســون ألف جنيهًا!! ببســاطة هكذا يمكن أن تصبح من الأثرياء! تســكن وتأكل وتلبس وتنام وتســتغني عن الناس؟

قالت العجوز: "اعتبريني سمسارًا.. سأوصلك إلى الطبيب الذي سيجري لك العملية البسيطة.. مجرد جرح تتسلمين بعده المبلغ.. وسآخذ أنا عشرة آلاف جنيه فقط.

وافقت فاطمة فورًا.. ولم تعد تأبه للجرح الآخر النازف داخلها فستشتري الدواء وتتغذى التغذية الجيدة التي طلبتها الدكتورة وتشفى من كل الأوجاع.

صحبتها العجوز إلى الطبيب وســلمتها للممرض ضخم الجثة فتســلمها ورحب بها إذ عاينها بسرعة ووجد أنها صالحة فما يزال عمرها معقولًا- في العشــرينيات- وبالتالي ستكون كليتها طازجة ومطلوبة وساومها لنفسه على خمسة آلاف جنيهًا لا غير!

ودخلت فاطمة إلى الطبيب الذي ابتسم في وجهها واندهشت إلى أن نظرته خالية من الشهوة.. كما أن الطيبة تبدو على وجهه.. أعلمها بالمبلغ الذي ستأخذه بعد أن يأخذ منها عينة دم لتحليلها وبعدها ستكتب ورقة.. فارتجفت وهي تخبره أنها لا تعرف الكتابة إذ هيئ لها أن الثروة ستضيع بسبب هذه الورقة لكنه طمأنها بأنه سيكتبها

هو وتُوقّع هي أو حتى لا توقع لايهم.. سيتصرف.. باست يده وأخذ منها عينة دم وطلب ان تمر بعد أسبوع وأن يظل الأمر في الكتمان حتى لا تفقد الفرصة. وحين عادت إلى العجوز تخبرها بما فعلت تغيرت على الفور معاملة المرأة لها وأصبحت حنونًا بل وأصبحت تهتم بتغذيتها بنفسها وتدليلها مما جعلها تسبح طويلًا في أحلام اليقظة وفي حدائق المستقبل حتى أصبحت تستخسر أن تنام.

مضى الأسبوع كأنه عام وذهبت إلى العيادة فاستقبلها الممرض بوجه عابس وأخبرها أن الطبيب سافر.. سألته بلهفة متى يعود فأخبرها أنه قد يغيب طويلًا لكنها سمعت صوت الطبيب في الداخل فاندفعت تدخل إليه مباشرة ففوجئت به يتقهقر وهو يضع على أنفه قناعًا واقيًا ويلبس في يديه قفازات زاعقًا فيها ألا تقترب منه؟ دارت بها الدنيا ماذا حدث؟ أهناك من أخذ فرصتها؟ أهناك من حل محلها؟ صاح بها الدكتور يعتذر لها يخبرها أنها مريضة ولا تصلح.. ردت عليه ببراءة إنه مجرد نزف بسيط لا علاقة له بالكلى وحين وجد أنها لن تترك العيادة أخبرها بالصدمة الكبرى: إنها مريضة بمرض لا علاج له اسمه نقص المناعة المكتسبة واسمه الشائع "إيدز" وأنه ينتقل بالجنس والدم وأن أجزاء جسمها مصابة ولا تصلح" فهل يرضيها أن ينقل كليتها المريضة إلى إنسان آخر وبدلًا من أن تحييه تقتله؟

تقتله؟ هل مرضها قاتل؟ سألت وعرفت. لقد نقله إليها إذن هذا المدمن المجرم؟ استمتع هو وقتلها هي! وقررت أن تقتله.. ذهبت إلى المقابر وقدمت له جسدها.. خلعت كل ملابسها فارتمى عليها

كالمجنون فتركته حتى إذا وصل إلى الذروة أطبقت على رقبته بفكيها ولم تتركه إلا جثة هامدة ثم نهضت فارتدت ملابسها وداهم عقلها ظلام دامس فسارت في الظلامين هادئة تحس بنوع من السلام عميق. يومها التهمت الطعام التهامًا وشربت لأول مرة بعضًا من زجاجات البيرة وفكرت في قتل المرأة العجوز التي عادت تعاملها بقسوة.. قررت أن تثأر من كل من آذاها.. وبدأت بذلك الطبيب نفسه الذي سود أمامها الحياة بعد أن علمت أنه يبيع الكلية الواحدة بمئات الآلاف من الجنيهات للأثرياء.. أبلغت عنه كل الجهات المسئولة -تليفونات مجهولة- أبلغت الشرطة والنيابة ووزارة الصحة والقنوات الفضائية وكل من يهمه الأمر.

ونسيت مرضها وانتابتها نوبة من السعادة أشعرتها أن لها معنى فقررت أن تواصل مع الآخريـــن "فطالما أن حياتي قصيرة فلتكن حياتهم أقصر أم أنهم يقتلونني ليعيشوا هم؟ يأخذون عمري ليمدوا في أعمارهم؟" تتبعتهم واحدا واحدا: رجل الكافتيريا وصاحب المكتبة الجنســية ومالك محل الخمر المغشوشة تتبعتهم كلهم تبيع لهم اللذة باحتراف قاصدة أن تنقل لهم الفيروس القاتل مع التأوهات المصنوعة. كانت تحس بنشوة غريبة وهي تبث في خلاياهم الموت عبر أنابيبهم المنفوخة" حتى مات فيهـــا كل ما كان داخل فاطمة وبعدها أصبح لها عشرات الأسماء وعشـــرات العناوين إلى أن فوجئ الناس بها ذات يوم تبكي وتلطم في الشارع وتتمرغ على الأرض.. فحملوها إلى المستشـــفى ظنًا أنها مريضة بالصرع وفي المستشفى شخص

الطبيب: "انهيار عصبي" وأشـــفق عليها واستراحت له فحكت له حكايتهـــا كاملة فاعطاها مهدئات وأخبرها أنها لا تعاني من صرع بل تعاني من صراع داخلي حاد بين فاطمة القديمة وفاطمة الجديدة متعددة الأســـماء والشخوص واستحلفته ألا يبوح بحالها.. فأقسم أن يحفظ ســـرها فاعترفت له بمرضها القاتل فابتســـم وهو يخبرها ألا تيأس إذ أن هناك أمراضًا تعالج نفســـها بنفســـها وأن جسم الإنسان أنكى من كل الفيروسات وأن رحمة اللـه فوق الجميع

قالت "الحمد للـه أليس هناك دواء"

قال: "ابحثي عن الحب"

وعادت تبيع المناديل وتبحث عن الحب

دهشت فاطمة إذ تغيرت نظرتها للحياة ونسيت كل ما كان وبدأ جسمها ينبض بأحاسيس جديدة ضراعة وشوقا لهذا الحب حتى هيئ لها أنها في طريقها إلى الشفاء "أمست ترى الليل بشكل آخر تنظر للمساء تبحث عن القمر والنجوم.. تتحسس نسمة الفجر وتتلمس نوره إلى أن وجدته يجلس وحيدا على المقهى كأنما ينتظرها فباست كتفه تتبهه لوجودها وجلست إليه وجلس إليها أطعمته وأطعمها ومنحها الهدوء ومنحها السكينة وسماها "شروق".

*

عايش الفرحان

يؤمـــن عايش أن الدنيا حظوظ كما ســمع في طفولته في القرية ويرى أن المدينة كالقرية أيضًا وإن كانت أوسع وأسرع ولكن كلها دنيا اللـه.. ولأنه محظوظ فقد أوقع اللـه الدكتور في حبه كما أوقعه في حب شـــروق ولكن عليه ألا يترك حظه يفلت منه فالحظ يقابل الإنسان مرة واحدة في حياته لا تتكرر كما علمه الدكتور أن يحافظ على فرحته - حين يفرح- وأن يعمل على نقلها للآخرين حتى تتحول إلى ســـعادة وحين شكا له عايش من ذلك الحزن المقيم داخله حيث يحس أنه بلا أب أو أم أخبره أنه أصبح الآن كبيرًا وناضجًا والعالم كله أمامه فلماذا لا يعتبر الطبيعة أمًا والوطن أبًا فاســتراح وركز اهتمامه في "شـــروق" البحث عن شـــروق التي هي فرحته ولكن عليـــه قبل أن يبحث عنها أن يبحث لها عن مســتقبل فهو لن يظل عالة على الدكتور.. لذلك أخذ يبحث لنفسه جاهدًا عن عمل شريف وما أن يرى الآخرون لهفته على العمل حتى يعرضوا عليه أعمالًا يكتشـــف أنها مشـــبوهة أو وضيعة حينها يتذكر تعاليم الدكتور بأن يقول "لا" أكثر مما يقول "نعم" فالوليد لا يدرك ذاته واستقلاله عن

أمه إلا مع أول "لا" ينطقها وهكذا -وهو الناضج لا الطفل- تعلم أن يقول لا فيحس بذاته يومًا عن يوم ورفض أعمالًا كثيرة كان آخرها ذلك العمل الذي لم يسبق أن سمع عنه إطلاقًا وهو أن يعمل "قفا"! كان يذهب إلى مكتب "ريجيسير" ليعمل كومبارسًا في السينما وما أن رآه الرجل وعاينه حتى هب واقفًا مرحبًا به ورفع السماعة يخبر من يحدثه على الطرف الآخر أنه وجد المطلوب ولما سأله عايش فرحًا عمن يحدث قال له "المخرج" أحس عايش بالبهجة.. وبأن الحظ حليفه فسيعمل أخيرًا في الفن حيث المال والشهرة معًا وتخيل "شروق" وهي تتابعه على الشاشة في التليفزيون وربما في السينما.. صحبه الريجيسير إلى المخرج في البلاتوه وما أن رآه المخرج حتى صاح "ها هو ذا من أريد".. اشتعلت الفرحة داخل عايش يقول لنفسه "ها أنذا" أدخل أخيرًا عالم الأضواء ورأى اسمه مضيئًا في الإعلانات في الشوارع وفي البيوت "الوجه الجديد فرحان" وأحب اسمه ووجده موسيقيًا.. لكنه لاحظ أن الريجيسير والمخرج معًا ينظران إلى قفاه أكثر مما ينظران إلى وجهه وحين تساءل رد عليه الريجيسير.. فكر في الأجر واترك اختيار الدور للمخرج.. لكنه ألح أن يعرف الدور الذي سيقوم به وأخيرًا قال له الرجل بصوت فخم "قفا" وشرح له حين قرأ الدهشة على وجهه:

"هذا المخرج العظيم لا تتجلى عبقريته إلا حين ينفعل سواء بعد لقطة ناجحة ترضيه أو لقطة سيئة لا تعجبه وهو يعبر في

الحالتين عن شـــعوره المتأجج بالحركة إذ تمتد يده ســـريعا إلى قفا أقرب الأشـــخاص ينهال عليها إلى أن يفرغ شـــحنته" ولما حاول عايش الهروب من البلاتوه امســك به الرجل بقـــوة واخذ يعدّد له -كاذبًا- أسماء الفنانين الذين بداوا السلم من تحت كفّ هذا المخرج وعملوا معه قفوات ثم أخذ يمنيه بالأجر العالي الذى سيحصل عليه إذ أن المخرج العبقري سيدخل في مسلسل رمضاني طويل من 90 حلقة!

لم ييأس فرحان وظل يذرع شوارع المدينة إلى أن وجدها ذات ليلة نائمة على أحد المقاعد في مقهى.. لم يصدق عينيه.. اقترب منها يوقظها.. نهره صاحب المقهى.. لكنه أخبره أنها أخته.. لم يصدق الرجل وسألها حين استيقظت تحدق في "فرحان" فأومأت برأسها ثم اندفعت تعانقه..اعتقد صاحب المقهى أنها أخته فعلًا بينما فوجئت هى بنفسها في حضنه! فسحبت صدرها من صدره وقد أحست أن من اندفعت إلى فرحان ليست شروق وإنما فاطمة القديمة العذراء وعلا القلبان بنفس النبضات ثم ساعده الحظ فوجد العمل المنشود والذي يمكنه من تحقيق معنى اسمه كفرحان. ذهب إلى السوق القريبة من مسكنه في حي الشيخ زايد ليشتري طعاما وبينما هو واقف عند بائع الخضار إذا بصوت زاعق يأتيه من الخلف.. ولم يكن إلا صوت ديك رومي لدى بائع الطيور المجاور.. كان الديك يعتلي قفص الدواجن في غطرسة كأنه الحاكم والدواجن داخل

القفص مجرد محكومين.. أعجبه منظر الديك فذهب إليه لمجرد الفرجة ثم تطور الأمر في رأسه حتى وصل إلى حد التهور حتى أنه فكر في أكله "هذا اللحم الرومي الذي لا يظهر إلاّ على موائد الأثرياء" لقد ذاق من قبل لحم الفراخ والبط حين كان صبيا في القرية وذاق اللحم المحفوظ وهو في البرميل لكن لابد أن يكون هذا اللحم الرومي شيئا آخر تماما.. سأل عن ثمنه وفغر فاه هلعًا، لكنه مد يده إلى المحفظة وأحصى ما بها ثم فاصل في الثمن واشترى الديك الصيّاح وحمله محضونا إلى صدره قاصدًا أن يراه كل عابر في الطريق كي يكتسب سمعة واحتراما.

وضع الديك في الشرفة ودخل إلى المطبخ وأحضر سكينا طويلة وعاد يمنّي نفسه بعدة وجبات متتابعة.. نظر إليه الديك الذي وقف ساكنًا بينما فرحان يذرع أرض الشرفة جيئة وذهابًا والسكين في يده يتخيل الديك أولًا على المائدة كبيرا فخمًا مطهوًا محمرًا تملأ رائحته الخياشيم يفترش البقدونس الأخضر وتعلوه البهارات الحراقة ووصل به الأمر أن استكثره على نفسه فقرر ألا يكون أنانيا وأن يأكل نصفه فقط ويبقى على النصف الآخر لحين يلتقي بشروق فمن المؤكد أنها مثله لم تذق في حياتها طعم الرومي الضنين وأخذ يتساءل:

هل يمنحها الصدر أم الأوراك أم يقسمه طوليا قسمة عدل وإنصاف أم يبقى عليه في الثلاجة الجديدة - منحة الدكتور يسري له - ويدعو

شروق إلى تقسيمه بنفسها كربة بيت قادمة فهى فرصة أن ترى الشقة الجديدة فهذا حقها ولا مانع أن تجلس في الشرفة معه كي يراها الناس والجيران ويتعودوا رؤيتها من الآن.

فجأة أطلق الديك الرومي صيحته عاليا كأنما يذكّر فرحان بنفسه.. ضحك فرحان وهو يخاطب الديك طالبا منه ألا يتعجل مصيره وأن يدعه يستمتع بمنظره بما يكفي إذ أن في الرؤية متعة للنظر كمتعة الفم حين يمضغ. عاد الديك يطلق صيحته غير هياب من السكين يصوب نظرته مباشرة إلى عيني فرحان حتى أن فرحان رآه في تلك اللحظة رجلا يتحداه، وهكذا تحولت الوجبة المنتظرة إلى إعجاب ثم برقت الفكرة في رأس فرحان فصاح في الديك وقد تراخت السكين في يده: "لا تخف لن أذبحك سأتخذك صديقًا" وأما ما حدث بين الديكين من تفاهم وتعامل طوال شهرين كاملين فلم يره أحد إلا يوم انطلق فرحان بالموتوسيكل الهوندا يتقدم موكبا من الموتوسيكلات تتبعه وهو يمسك بيده طبلة وهو يقود الموتوسيكل بينما يجلس إلى جواره ديكه الرومي يطلق صيحاته العالية لإفساح الطريق.

كان فرحان قد تأمل مواكب الشباب راكبي الموتوسيكلات التي تعلن عن الأفراح تتجه إلى سرادقات الزفاف في شكل سرب كأسراب الطيور مطلقين أبواقهم منغمة: "بيب بيب" في كل شارع إلى أن يصلوا لسرادق الفرح فتستقبلهم الطبول والزغاريد فقال لنفسه:

"هذا عمل جميل وشريف يساهم في أفراح الناس" لكنه - يقول لنفسه - لن يكون مثل هؤلاء الشبان الذين يمثلون الفرحة لا الفرحة نفسها يبيعون الشكل الخارجي المزيف لا الفرحة الحقيقية للقلوب.. هم أبواق دعاية لا أكثر تتمشى مع زمن أصبحت فيه الدعاية الكاذبة تروج للسلعة المغشوشة وليس هذا هو ما يريده.. قد يكون الشكل جذابًا لكنه كاذب هدفه الكسب فقط وسأل وعرف أن تلك المواكب غالبًا ما تكون مدعمة بالخناجر والمطاوي للدخول في معركة إذا لزم الأمر حماية للعروس أو العريس وغالبا ما يتم الأمر تحت رعاية صديق أو قريب من أمناء الشرطة الذين لا هم ضباط ولا هم عساكر ولا هم قانعون.

قرر فرحان أن يعمل في نفس المجال ولكن بضمير.. يزف إلى العروسين الفرحة الفعلية كي يحقق لنفسه فرحته الخاصة فكما أخبره الدكتور أن "سعادة العطاء أعلى من سعادة الأخذ" وهكذا أسرع إلى الدكتور يسري وزف إليه الخبر.. فشجعه الدكتور واشترى له الموتوسيكل "الهوندا" حتى يكون مميزًا في موكبه عن باقي الموتوسيكلات الصيني، وذات خميس من شهر سبتمبر انطلق الموكب الجديد يقوده الصديقان: فرحان وكوكو.. البالونات الملونة تتطاير في الهواء مشدودة إلى أصابع "كوكو" بينما كوكو يجلس واثقا بنفسه يرفرف بجناحيه ويزغرد وما أن يصل الموكب إلى مكان العرس -وقد سبقته الدعاية- ويتخذ طريقه إلى حيث المدعوين حتى تعزف

الموســيقى وتلتهب الأكف بالتصفيق وتعلو الصيحات متحولة إلى هــذا الكوكو "العجيب" بينما كوكو يتخذ طريقه منتفخا إلى خشــبة المسرح ليحل محل الراقصة التي تتنازل لتوها لهذا الراقص "هذا هو نجم الحفل الذي سيقدم "الشو" الفريد جامعًا بين الرقص والطرب معًا" هكذا يعلن مقدم الحفل في الميكرفون فيقف العريس وتقف معه العــروس في تصرف لم يحدث من قبل كتحية خاصة فيحني كوكو رأســه يرد التحية ويعلو صوت الطبلة في يد فرحان فيرتعش جسد كوكو متفوقًا على رعشة "فيفي عبده" ثم يقفز إلى أعلى مرفرفًا ويعود نازلًا على الخشبة مفرشحًا ساقيه كما تفعل الراقصات المحترفات - وكما دربه فرحان - وما أن يعلو الصياح والتصفيق حتى تصدح دقات الطبلة وتصهلل الفرحة في قلب فرحان فيصيح ناقلًا توهجه لكوكو: "تألق يــا فتى"، يقفز كوكو أعلى وأعلى حتى يكاد يلامس لمبات النور.. ويزغرد بصوته فتعلو زغاريد الأهل والأحباب ويتجلى أكثر وأكثر مع تجلي دقات الطبلة، وحينها تتعالى أصوات متزاحمة تختفي داخلها أصوات النساء والبنات العذارى يطلبن "نمرة العريس" فيصعد "فرحان إلى حيث كوكو والعروسين وينصب في أحد الأركان "برافــان" صغير يمثل عش الزوجية.. وعلى الفور يتقمص كوكو دور العريس، يبدأ أولًا بالعريس "الغضنفر" فينتفخ ويرفرف بجناحيه ويمشي في غطرسة واعتداد تجاه البرافان يطل فيه ثم يعود للخلف يرفرف وينفخ نفسه ويطلق صيحة ثم يعود يطل ثانية داخل البرافان،

ويقفز عاليًا ويطلق صيحتين.. ويهلل الرجال والنساء ويقهقه العريس وتبحلق العروس رغم ادعائها الخجل.. ثم يطلق الديك ثلاث صيحات ويســرع داخلًا إلى البرافان ويختفي وتصهلل الطبلة كأنها تترجم ما يحدث في الداخل ويغيب العريس قليلًا ويصمت الحاضرون في ترقب ثم يخرج "كوكو" يجرجر رجليه شــبه كسيح فقد أدى مهمته أكثر مما يجب فتزغرد النســاء ويعلو الضحك والتهليل والتصفيق والأصوات تطلــب العريس الآخر "الخيبان" فينهض كوكو ويفرد نفســه ويتجه إلى "البرافان" ينظر فيه ثم يتراجع ويقف على ساق واحدة ويهرش رأســه بالساق الأخرى كأنه يفكر ثم يعود يطل في "عش الزوجية إلى عروســه" ويتراجع وهو يفكر ويكرر ذلك عدة مرات ثم يبرك جالسًا مصدرًا صوتًا كأنه "يحزق" ثم يقف فإذا تحته بيضة! وهنا تضحك النساء بينما تعلو قهقهات الرجال وهم يبرمون شواربهم وتخفي البنات وجوههن في الكفوف والإيشاربات. وتبقى النمرة الأخيرة التي يختتم بها الصديقان فرحان وكوكو "الشو" حيث يشــتركان معًا في رقصة واحدة هي رقصة الســعادة أو كما يطلق عليها أصحابها رقصة الـ"بيبوب" وقد شــاهد فرحان هذه الرقصة على إحدى قنوات التليفزيون المحلية وشــدته بقوة حتى أنها ظلت باقية أمام عينيه حتى جمع كل المعلومات عنها وعرف أنها أشــهر رقصات قبيلة "البجا" والسكان المحليين في منطقة حلايب وشلاتين المصرية في أقصى الجنوب على ساحل البحر الأحمر حيث الحياة

البكـــر وهي أعلـــى الرقصات المعبرة عن الفرح والســـعادة - بلا نبوت ولا سيفـ- خصوصًا في مناسبات الزواج والعرس يصاحبها التصفيـــق أو آلة "الطنبورة" حيث تعلو النغمات التي تشـــعل روح الفرحة والإقدام والشجاعة.

ومن أجل أن يرى الرقصة أمامه حية ويتعلمها ويشارك فيها سافر فرحان إلى حلايب واستضافه الكرام هناك أسبوعًا حتى تعلم الرقصة تمامًا وفرحوا إذ علموا أنه سينقلها وينشرها في كل أرجاء مصر وحين عاد ظل يدرب كوكو على المشاركة فيها حتى أجادها وتفوق.

وما أن علت الأصوات حـــول كوكو بعد أدائه للعريس الخيبان تطالبه برقصة "البيبوب" حتى ترك فرحان طبلته والتقط مخلته التي تحوي مستلزمات الرقصة وأخذ طريقه قافزًا إلى حيث كوكو ونصب خيمـــة خفيفة اختفى داخلها لدقائق ثم خرج منها وقد خلع البنطلون الجينز وارتدى جلبابًا أبيض واسعًا تحته سروال طويل بنفس اللون وقدمين حافيتين وما أن رآه كوكو حتى انتفض نافشًـــا ريشه مطلقًا صيحة مميزة كأنما يقول "انتبهوا" وبلياقة بدنية عالية ورشاقة شديدة يبدأ الاثنان قفزات عادية تعلو تدريجيًا إلى أن تصل أعلى ما يمكن للإنسان وقد تحول الاثنان إلى حركة موسيقية صاعدة بينما التصفيق المصاحب يتخذ شكل الرياح التي تدفعها إلى أعلى وأعلى.. فرحان

يجسد الفرحة البشـــرية يريد توصيلها إلى لحظة الإشراق وكوكو يجسد نزعته الداخلية العميقة إلى الطيران..

وما أن يفيق الجميع.. ويهدأ التصفيق وتلوح الأكف وتعلو الصيحات حتى يخرج الجميع من حمام النشوة ويهرع العريس بعروسه إلى الفراش.

هكذا يشيع فرحان وكوكو البهجة في النفوس معتبرًا أن ذلك هو أجره الحقيقي وأنه قد حقق معنى اسمه بالفعل كما طلب الدكتور.

يعمل فرحان أيام الخميس الأولى من الشهر فقط ويترك لغيره الأيام الأخرى حتى لا يحقدوا عليه أو يكيدوا له فالرزق متاح للجميع كما أنه لا يرفض دعوة عمدة أو شيخ بلد في ضواحي القاهرة أو حتى في الصعيد رافضا أن يكون أجره متضمنا أجر كوكو إذ لكل منهما شخصيته المستقلة كما أن لكل منهما فنه المستقل ودائما ما كان يرفض استضافته في أي برنامج يعرض عليه في التليفزيون رغم الإغراء إذ حذره الدكتور يسري حتى لا يتحول إلى محترف يستعبده المال وكي يظل هاو "فالحياة لا تصدح إلاّ في قلوب الهواة" دفعت الغيرة مواكب الزفاف الأخرى إلى تقليده فاستعان أحدهم بذَكَر نعَام بدلًا من الديك الرومي.. اشتروه من مزارع النعام الجديدة التي انتشرت في مصر لتمد الأثرياء الجدد بلحم مميز لكن ذكر النعام فشل في تعلم الرقص ووجدها فرصة للانتقام فرفس صاحبه رفسة

أودت بحياته.. كما دفعت آلاف الجنيهات رشوة لحارس أقفاص الطاووس في حديقة الحيوان للحصول على واحد منها ادعوا فيما بعد أنهم استوردوه خصيصا من إيران لكن الطاووس المسروق رفض أن يتنازل عن كبريائه إلى مستوى الرقص الرخيص فلجأ المنافسون والحاقدون أخيرًا إلى افتعال معركة في أحد الأفراح بينما "كوكو يرقص على البيست هادفين إفساد الفرح وهز مكانة "فرحان" حميت المعركة وتطايرت المقاعد وكسرت الفوانيس واللمبات وعلا الضجيج والزعيق والصراخ وعلا إيقاع الطبلة في يد فرحان فقفز كوكو من مكانه طائرًا بين الكراسي المرفوعة يهاجم بجناحيه العيون كصقر مدرب يسدد بمنقاره الطعنات للوجوه والأنوف ويطلق صياحه الغاضب مدافعًا عن صديقه فرحان إلى أن هرب كل البلطجية والمأجورين عدا زعيمهم الذي أبى فما كان من كوكو إلا فقأ عينه فهوى الزعيم إلى الأرض صارخًا يتلوى وأصبح كوكو بعد المعركة حديث الساهرين حول الجوزة:

"سمعت أن شيرين طلبت أن تغني دويتو مع كوكو لكن فرحان رفض.. إذ هو يريد فيلم أكشن".

أو يقول آخر:

"طلبت هيفاء وهبي أن يقوم أمامها ببطولة فيلم لكنها خشيت على صدرها من منقاره"

أو يفتي ثالث:

"عرض عليه محسن جابر مكتشف الأصوات احتكار صوته لمدة خمس سنوات لكنه رفض مبدأ الاحتكار وأعاد إليه العربون"

ويؤلف رابع:

"طلب منه الزعيم عادل إمام مشاركته في مسلسله الرمضاني الجديد لكنهما اختلفا على من يكتب اسمه أولا"

وما أن يصل رأس العصابة ذو العين المفقوءة حتى يكف الجميع عن الكلام تقديرا لمصابه الأليم.

***

في رقة فراشة.. تمددت ندى على سريرها مع الفراشات النائمة على الجدران قريبة منها.. كانت مريضة.. لم تغادر حجرتها كالعادة كل صباح لتشارك يسري ري الحياض.. اتصل بها بالموبايل يوقظها ظنا أنها تأخرت في النوم.. رن جرس التليفون على الوسادة إلى جوارها لم يكن رنين تليفونها عاديا إذ كانت قد اختارت له أغنية مما يحبها الدكتور يسري:

"يا دنيا يا غرامي

يا دمعي يا ابتسامي

مهما كانت آلامي

قلبي يحبك يا دنيا"

ظلت تسمع الأغنية يكررها طلب يسري.. هي لا تريد أن تخبره أنها متعبة ولا تحب له أن يتعب لتعبها فهي تحب كل ما فيه حتى لو تخلى عنها أو كرهها فستظل تحبه فقد اكتشفت أن الحب يسعد صاحبه حتى ولو لم يحس به المحبوب.. إنه عالم مُكتَف بذاته..

ويكفي أن تحيا في هذا العالم.. كعصفورة أحياناً.. يمامة أحيانا وأحيانا زهرة لقد أصبحت تحس بنوع من الأخوة مع كل الكائنات حتى تلك الفراشات التي تحيط بها فلا تراها أبدا مجرد صور ملصقة على الجدران.. إنها تحدثهم ويحدثونها وهذا القمر المطل فوقها من السقف تحيط به النجمات ألا يضئ لها ما أن تنام! ها هى تجرب المرض لأول مرة في حياتها.. تحسه كيد حانية لا كيد قاسية كما يحس الآخرون.. وها هو التليفون مايزال يغني: "يا دنيا يا غرامي مهما كانت آلامي" وما أن فوجئت بيسري يقتحم الحجرة ملهوفا فزعا يلهث حتى اعتدلت في السرير فللمرة الأولى يدخل غرفتها: هل أنتِ مريضة؟ قالت: "أبدا.. فقط تأخرت في النوم" وشكرته أن أتى يوقظها بنفسه.. تخبره أنها تمنت تلك اللحظة منذ أن عرفته.. منذ أن أحبته ودعته أن يجلس على طرف السرير فجلس ومد يده إلى جبهتها يجس حرارتها فاعترضتها تقبّلها.. أحس حرارة شفتيها كطبيب فعاد يخبرها.. أنتِ متعبة يا ندى.. حرارتك مرتفعة.. وساوره القلق أن يكون ذلك من عمل المرض الكامن داخلها لكنها نهضت واقفة في فراغ الغرفة تطمئنه:

"أنا في كامل صحتي.. هل أرقص لك؟" صمت فأشرق وجهها

"ألم تكن تود إدخالي معهد الباليه وأنا طفلة؟"

وبدأت ترقص لكنها داخت فجأة ووقعت على الأرض فكاد يجن

إلى أن نهضت تجلس على حافة السرير. كان المرض قد بدأ يعمل بطيئا في جسدها بالفعل إنه الإنذار المبكر.. ركع أمامها يسري على السجادة "بم تحسين يا حبيبتي؟"

"مجرد دوخة" ثم أضافت مبتسـمة في إعياء "إنها أمور نسائية تعاودني كل شـهر" أطرق الدكتور يسـري.. يريد أن يصدق هل يجـازف ويحقنها بالدواء أم ينتظر؟ عليه أن يسـرع بحقن فرحان ليطمئن إلى مفعول الـدواء.. غادر الغرفة إلى الكوريدور وهاتف فرحان في التليفون يطلب منه سرعة الحضور.

***

ينام "فرحان" فرحانا ويصحو مستبشرا يراقب الشمس كل صباح من شرفة شقته الجديدة بينما يجلس إلى جواره صديقه كوكو على حافة الشرفة يفطر بأوراق الخس الطرية ويراقب الطريق ويتأمل بطريقته الخاصة هذا الرجل الغريب الذي ظنه حين اشتراه وحين أحضر السكين جزارا يعده للذبح لا إنسانا طيبا متسامحًا:

"لماذا لا ترحب بي كزوج ولماذا حتى لا تمنحني قبلة؟ هل هو الفارق بين قوة حبي لها وحبها لي أم أن هناك سرا تخفيه عني يقف بيننا كجدار؟"، طلب منها موعدا بالتليفون وألح فقبلت فطار إليها بالموتوسيكل الهوندا بعد أن استأذن من صديقه كوكو. "الأول

مرة سترى الموتوسيكل الذي سيعفيها من زحام المواصلات حين يتزوجان وتركب خلفي تحتضنني لتكون فرحة علنية طوال الطريق إذ لماذا لا نفشي الفرحة مثلما نفشي السلام؟

حين وصل وجدها على المقهى في انتظاره.. فيما قبل كان ينتظرها هو.. هذه أول مرة تنتظره هي رغم أنه جاء قبل موعدهما راكبا "السريع" بدأ الكلام بينهما صمتا هي ترى الحياة أمامها سدًا وهو يرى الحياة أفقا ممتدا وحين طال الصمت قال: "غيرت اسمي إلى فرحان" ابتسمت فقال: "صديقي كوكو يدعوك لترى شقته الجديدة"

نظرت إليه في صمت وطالت نظرتها وانسابت من عينها الدموع "مالك؟" سأل في حب أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى:

"من الأفضل أن نفترق"

لم يسمع.. ولم يرغب أن يسمع وحين أعادت الكلام وسمع لم يصدق.. نفترق؟ لماذا؟ "سألها" "لماذا؟" لم تقل له الحقيقة لكنها أخبرته أنها تزوجت مرة وجربت حظها في الزواج ولن تكرره"

رد عليها بأنه سيعوضها عن كل ما سبق، فهو يحمل لها شحنة من الحب تكفي لألف سنة، ساجعلك أميرة.. ابتسمت وقالت: "أنت إنسان طيب، وأنا أحببتك"

كاد يجن: لماذا إذًا نفترق؟

قالت: "أنا معمول لي عمل"

قبلها في كتفها وابتسم في وجهها: "وانا معمول لي عمل يفسد عمل عملك"

"لا اريدك أن تحزن"

"لن يكون هناك حزن إن شاء اللـه"

"ألن تحزن إن أنا مت؟"

"سأموت وراءك في نفس اللحظة"

قالت: وأنا لا أريد لك الموت.. وطالت نظرتها إليه وطالت نظرته إليها

قال وقد تدفقت داخله شحنة عالية من الشجن:

"وجهك جميل.. اجمل وجه رأيته في حياتي"

همست: "تملّ فيه طويلًا حتى تتذكره حين أغيب"

زعق: "لن تغيبي.. سأتزوجك اليوم.. الآن"

انهارت باكية وأسرعت تجري على غير هدى.. بقي فرحان مكانه جامدًا لا يعرف لماذا تهرب؟ ولا يدري ماذا يفعل.. أظلم رأسه تمامًا كما عتمت عيناه.

اسرع إلى الدكتور يسري يخبره بما حدث فهون عليه الأمر يؤكد له أنه مجرد "دلال" وانها تختبرمدى حبه لها وألح عليه أن يبحث عنها بعد أن يحقنه باكسير الشباب واتجه يسري إلى المعمل لإحضار الدواء وعاد فلم يجد فرحان.

***

تحسـنت صحة "ندى" وعادت تشارك يسري ري الزهور في الحديقة تنتقل بنشـاط وهمة كي تثبت له أن صحتها طيبة بينما هو مختزنا الألم داخله يحدثها عن المستقبل وعن الرحلات القادمة لباريس وفيينا حيث ليالي الأنس كما تغنى اسمهان فتنبهه إلى صوت اليمامة صديقته التي عالجها من موت محقق وطارت دون أن تدفع الفيزيتا! ها هى تدعو له بينما تهدل كل صباح "وحدوا ربكم.. المولى حبيبكم" تدعو الناس للصلاة.. يكاد الدكتور يسري يفقد عقله! إذ يفسر أقوال ندى على أنه همس الموت داخلها.

"هل يحقنها بالدواء أم تنتظر؟

اقتربت منه ندى وأمسكت يده:

"فيم تفكر" رد دون تفكير:

"فيك" ثم انتبه فرفع يدها الطرية البريئة إلى فمه "وهل لحياتي معنى إلا بك؟"

"لماذا إذن تقيم جدارًا بين شفتي وشفتيك؟ ألا تشتاق لي؟"

صمت..

كيف يوقف عمل عقله.. كيف يوقف سـيل التفكير.. كيف يفكر العقل ضد نفسـه! لقد عمل طويلا كجراح للمـخ وللأعصاب فلم يفهم لا المخ ولا الأعصـاب إلا من الخارج أما ما في داخلها فهو المجهول ذاته.

***

ظل "فرحان" يبحث عن "شـروق" أيامًا طويلة امتنع فيها عن الذهاب إلى الأفراح، إذ كيف سـيقدم للناس الفرحة وهو حزين؟ إن الطبلة ستختل دقاتها في يده وتختل معها رقصات الكوكو؟ وقد يفقد الزبائن.

في هذه الأيام القاتمة الطويلة كان فرحان يهرب من نفسه فيلجأ إلى الدكتور يسري فيشحنه بالأمل.. يذهب إلى أحد المطاعم الكبيرة يتعشى فيها ويسهر في حديقتها حتى الفجر، وفي إحدى تلك الليالي اقترب منه شخص ما وسلم عليه بحرارة وعرفه بنفسه كمصري

يشجع الفن وأنه سمع عنه وعن طائره الفريد ويريد أن يتعاونا معًا بتقديم عروض في الفنادق الكبرى حيث أثرياء القوم.

وافق فرحان مرحبًا..

وتنقـــل بين الفنادق مع كوكو وقدم عروضه وأعجب به الرواد، ظل يتنقل شهرين اثنين وحصد ما يعادل ستة ملايين من الجنيهات فاشـــترى قطعة أرض في المقطم وذهب إلى الدكتور يسري يخبره بما حصل عليه من مال فهناه وعاد يلح عليه بالبحث عن شـــروق كي تشـــاركه فرحته بعد أن أعد لها المســـتقبل السعيد وما أن رأى "فرحان" "شـــروق" نائمة على مقهى مجهول في زقاق مظلم حتى أسرع إليها ملهوفًا يوقظها ويتلعثم الكلام في فمه يخبرها أنه اشترى قطعة أرض في هضبة المقطم بعيدًا عن العيون وأنه كان قد بدأ في البناء لكنني أوقفته لتشـــتركي معي في تخطيطها". انتبهت شروق أن الواقف أمامها هو فرحان نفسه وليس طيفه وأنها متيقظة فابتسم له وجهها الشاحب -والذي يزداد شحوبا- وباركت له على الأرض من خلال ســـعالها قال: ســـتكون فيلا لا منزلا وستكون بها حديقة تتجولين فيها مع كوكو وساصنع منك أميرة كما صنعت من كوكو نجما قالت: أتمنى لكما الســـعادة قال: "لا سعادة لي بدونك" نهضت واقفة فوقف وعلا صوته قليـــلا "قولي إنك لا تحبينني كما أحبك" همســـت: "اللـه أعلم" وبدأت تتحرك أمسك بيدها: "ساوصلك إلى اللوكانده وسنتحدث هناك".

رفضت.. فقد كانت تعرف أنه لم تعد هناك لوكاندات.. وأنها طردت وأنها تبيت على مقعد في مقهى ردت: "أريد أن أسير على قدمي" لكنه - وقد فاض به - أمسك بذراعها وجذبها رغما عنها تجاه الموتوسيكل وأداره فركبت وراءه تحتضن خصره وتبكي وطوال الطريق إلى المقطم وفرحان يحس أنه أمام لغز فهذه الفتاة التي ملكت قلبه والتي تحتضن خصره الآن وتبوس ظهره في جنون ما بالها تطلب منه الفراق؟

وقفا أمام قطعة الأرض الكبيرة يريها التخطيط المرسوم بالجير كأساس للبناء مؤكدا بأنها ستكون قصرا لا فيلا.. ثم يشير إلى جزء من الأرض يخبرها أن هذا هو مكان الحديقة حيث سيجلسان كل صباح مع شروق الشمس فتبتسم لأنه ضغط على كلمة "شروق" فيقبل يدها فتعلو أنفاسها وتتلاحق "وهنا سيكون المطبخ كبيرًا وواسعًا لتتحركي فيه براحتك أم أنك ستحتاجين خادمة؟

ابتسمت فقبل يدها ثانية: فتلاحقت أنفاسها

"وهذه غرف النوم.. اثنتان لا واحدة" وضاحكا قال: "حتى إذا أغضبتك تركت لي واحدة ولجأت للأخرى" لم تبتسم وعلا السعال مع أنفاسها "هذه غرفة الأولاد ولد وبنت حتى لا يرهقك الإنجاب" لم تعد تتحمل أنفاسها ولا سعالها ولا الظلم الكامن في روحها.. فهجمت عليه تحتضنه وتمرغ وجهها في وجهه حتى أنه لم يتمالك توازنه

فوقع على الأرض فوقعت معه وقبل أن يتداخل الجسدان سحبت نفسها وأخذت تزحف ثم تقف ثم تجري وتقف وتنكفئ وتعاود الجري لترتمي وحدها على الأرض بعيدا عنه تحفر بأظفارها وتتشنج:

"كيف أنقل إليك الموت بينما تتوقّع مني الحياة!"

كريزي هورس

أواخر سبتمبر...

ورياح الخريف نشطة تلهو بأوراق الشجر في الحديقة تحاول أن تسقطها ممهدة للشتاء القادم بينما الأوراق تتشبث بفروعها في عناد وإصرار وروبي يراقب وينتظر ويفرز الأوراق عن العصافير. كانت ندى قد تخرجت من مدرسة "الليسيه" وخلعت المريلة واختارت أزياءها الجديدة وذهبت للجامعة. أما الدكتور يسري فكان تلقى تليفونا من فرحان يخبره أنه أكمل بناء الفيلا وأنه اتفق مع شروق أن يزفا إلى بعضهما غدًا الخميس.. ويقول الدكتور يسري: "ها أنا أخيرًا سأصل إلى هدفي وأجرب الدواء عمليا على فرحان وفي الوقت المناسب تمامًا غدًا ليلة عرسه وهو في كامل معنوياته" ثم تعلو الآمال والطموحات داخل صدر الدكتور وهو يتأمل ندى فيصبو إلى أن يعيد إليه الدواء هو أيضا -حين يتعاطاه- حيوية الشباب الدائم. وحلق به الأمل حتى أنه قال لندى مداعبا "أريد أن آخذ منك موعدا في المستقبل؟".

قالت: "متى؟"

"في العام 2050" في حديقة الأندلس

ضحكت حتّى اهتز صدرها وقالت: "دعنا نستمتع بالحياة الآن. أريد أن اسهر الليلة"

قال: لنسهر

قالت: خارج القصر

قال: خارج القصر

قالت: في مكان به مرقص

قال: وسأرقص معك حتى الصباح

طلبت منه أن يحلق ذقنه الخشنة فنهض وحلق ذقنه مرتين إذ كان على استعداد لأن يلبي لها أي طلب فقد كان كل تفكيره في اللحظة التي سيحقّق فيها فرحان بالمزيج غدًا.

منذ أيام قليلة كانا متخاصمين هو وندى على أثر نقاش سمحت فيه البنت الصغيرة لنفسها أن تعارضه مصرة على رأيها وربط هو بين جرأتها هذه أو تجرأها وبين دخولها الجامعة.. تناول يسري تفاحة من الطبق أمامه وقسمها نصفين هامًا أن يعطي نصفها لندى لكنه فوجئ بدودة ترقد في عمق الثمرة فأسرع يلقيها بعيدًا يعلو وجهه الاشمئزاز.. استفسرت ندى فأخبرها أنه وجد بداخلها دودة مختبئة! أبدت دهشتها إذ هى التي اختارت التفاحة وقد فحصتها جيدًا

كانت الثمرة سليمة فمن أين دخلت الدودة! قال: لابد أنها كانت كامنة في الداخل منذ بداية تكوينها. أخذت منه ندى خيط الكلام تفسر له الأمر.. قالت: "ربما منذ بدء التكوين.. كانت الدودة كامنة داخل الثمرة حين كانت على الشجرة المحرمة في الجنة والتي بسببها هبط سيدنا آدم إلى الأرض.. ألم يطلب منه ربه ألا يقرب تلك الشجرة؟ ومع ذلك أغواه الشيطان فأكل منها وعصى ربه بينما كانت الدودة داخل التفاحة ولم تكن تلك الدودة سوى الموت!" وهكذا نزل الموت مع آدم قدرا مقدرًا عليه وعلى نسله من بعده. ثم أشارت ندى إلى رقبة الدكتور يسري: "ألا ترى أن تفاحة آدم ماتزال تقف في حلقك حتى اليوم لا تقدر على بلعها ولا تقدر أن تلفظها؟"

علق يسري على تفسير ندى: "وأنا أعددت الدواء الشافي من تلك الدودة وسأجربه غدا على فرحان".

رفضت ندى بشدة أن يجازف بحياة إنسان يسعى لأن يبدأ الحياة.. يكاد يخبرها أنه يفعل ذلك من أجلها لكنه لا يقدر فتحول اهتمامه إلى سهرة الليلة يطلب منها أن تختار له ملابسه قبل الخروج.. فتحت ندى الدولاب تنتقي له الزي الذي سيلبسه.. اختارت له ألوانا زاهية رغم تنبيهه لها بأن ملابس السهرة لا يصح أن تكون فاتحة اللون لكنها أصرت "يجب أن تعبر الملابس عما بداخل صاحبها" وارتدت هي ملابس قصيرة.. بلوزة وردية وجونلة حمراء وحذاء أحمر بكعب وارتدت فوقها بالطو فرو طويل كان يسري قد أحضره

لها من ألمانيا كان البالطو غالي الثمن إذ أنه من فراء "المنك".. اندهش يسري من ارتدائها البالطو فالجو ليس باردًا إلى هذا الحد وسألها إن كانت تحس برعشة فردت: "لا. إنما أريد أن أحس أنني "ليدي" حتى إذا وصلت إلى مكان السهرة وجدت من يتقدم مني ليخلع عني البالطو كالنجمات".

صحبها الزوج العاشق إلى فندق بالعجوزة به مرقص في الدور السفلي كان يسهر فيه في منتصف العمر حيث يطول الحديث بينه وبين عالم الآثار الراحل "أحمد قدري" يتحدثان عن فكرة الخلود عند الفراعنة وأن الموت لديهم لم يكن فناء بقدر ما كان رقادا مؤقتا استعدادا للحياة الطويلة بعد راحة قصيرة. حزن يسري على العالم الكبير الراحل حين اغتاله السرطان وفشل الطب في مصر في إنقاذه والعلم في اليابان عن إطالة عمره.

"أين باب الفندق؟" سأل الدكتور وقد تاه في الشارع المظلم والذي كان مضيئا فيما قبل.. أجابه صاحب الكشك العشوائي الذي يحتل المدخل ويخفي الباب: "الفندق اشتراه حديثا حاج يمني هرب بجلده وثروته من حرب اليمن وأغلق كافتيريا الفندق بعد أن منع السهر والخمور وتزوج فتاة مصرية وعاش". عادا إلى السيارة. همست له ندى: أريد أن أسهر في مكان مضيء.. سأله السائق إلى أين يا باشا؟ رد عليه يسري: "إِسأل الهانم". قفزت ندى فرحًا في مقعدها.. لأول

مرة في حياتهما يطلق عليها يسري هذا اللقب الفاتن الذي اختفى منذ أيام الباشوات والذي كانت تسمعه فقط في الأفلام القديمة قالت: "لابد أنه بسبب البالطو" فحبكته على كتفيها ورفعت أنفها لأعلى كالهوانم وهى تقول للسائق "الزمالك يا أسطى" سألها: "أي مكان يا هانم؟".. لم يكن في رأسها مكان بالذات لذلك لم ترد ولا عاد السائق يسأل فأتجه إلى مفترق طرق هناك في الحي الأرستقراطي القديم وتوقف.

قالت ليسري تدعوه للنزول: "تفضل يا باشا" ونزلا.. سارت أمامه بخطى سريعة فتبعها يتحسس الطريق في الشوارع المتداخلة الهادئة داخل النور الخافت.. هى تسبقه وهو يحاول اللحاق بها لا يعرف إلى أين تتجه ولا أين الملهى الذي سيسهران فيه ولا حتى كيف عرفته وهى لم تأت إلى الزمالك من قبل!

لحق بها وسألها عن اسم الملهى قالت: "ماجيك كات".. ترجم اللفظة إلى "القطة المسحورة"

"اسم جميل. اين هذه القطة المسحورة" كانت تجري وهو يحاول اللحاق بها.. تتوقف أمام أي مكان مضيء وتسأل فيشير لها الحارس أو البواب إلى شارع آخر فتسرع إليه وتسأل وتتبع الإشارات وظلت تنتقل من شارع لشارع ومن منعطف لآخر وتتعدد الشوارع والمنحنيات: "شارع المرعشلي".. "شارع طه حسين".. "شارع

منصور محمد" "برج أم كلثوم" هى لا تتعب من الجري وهو يجاهد ليلحق بها يحاول ألا تراه هكذا متلاحق الأنفاس ضيق الخطوات فلم يسبق له أن سار هذه المسافة الطويلة على قدميه.. توقفت ندى فجأة وانتظرت حتى لحق بها يسألها عن مكان ذلك الملهى الذي لا يبدو له وجود فوجئ بها تطلق ضحكتها العالية وسط الصمت الليلي وهى تشير إلى رأسها "هنا" ثم أضافت وهى تبتلع ضحكة أخرى: "أردت أن أنشط ساقيك استعدادا للرقص".

في شارع سوريا بالمهندسين.. نزلت "ندى" من السيارة ووقفت تتأمل اللافتة المضيئة أعلى الملهى: حصان يتوهج داخله ضوء النيون الأحمر الفاقع يكاد الحصان يكون حيا لا ينقصه سوى الصهيل.. هللت ندى وقالت ليسري "هنا سنسهر. كان الملهى يحمل اسم "كريزي هورس" قال يسري: "كريزي هورس يعني الحصان المجنون".. ردت "ندى" كأنما تصحح له "الحصان الجامح" أصر على أنه "مجنون" وأصرت على أنه "جامح" فابتسمت وقالت "سواء كان مجنونا أو جامحا سنرقص".

كان الطريق إلى داخل الملهى طويلا يمتد على أرضيته بساط أحمر في لون جيبة ندى التي ترتديها يزف السائر إلى الداخل صفان من نباتات الزينة نارية الأوراق مع موسيقى هادئة تمهد للصخب المرتقب. أحست ندى وهى تسير على البساط الأحمر الطويل أنها نجمة من نجمات هيوليوود في طريقها للمنصة لتتسلم

جائزة الأوسكار فخلعت البالطو المنك وألقته على ذراع يسري ثم خلعت الحذاء الأحمر ذا الكعب العالي وألقته خلفها وسارت حافية متمهلة على البساط تتسمع في أذنيها تصفيقا جعلها تهز رأسها كأنها ترد التحية.. لم يشعر يسري إلا بأنها انزلقت من تحت ذراعه وأنها أصبحت أقصر مما كانت إلا حين وجد أحد الحراس يسرع وراءهما حاملا حذاءها يقدمه إليها فهمس يسري في أذنها "أنت أيتها الكريزي جيرل" فانتبهت وأسرعت تضع الحذاء تحت إبطها!

انحنى لهما الجرسون يفتح الباب الدوار مندهشا موجها انحناءته وابتسامته تجاه الدكتور يسري فهو يعرفه كطبيب وعالم كبير من صوره في الصحف.. وتساءل بينه وبين نفسه عن سر حضوره إلى هذا المكان الذي لا يسهر فيه سوى الشباب.. لابد أن هذه الفتاة هي التي قادته؟ وتساءل إن كانت ابنته أم صديقته.. فإن كانت ابنته فلماذا يصحبها إلى حيث الشباب الطائش وإن كانت صاحبته فكيف يظهر بها في الأماكن العامة! أم تكون تلك هي المعشوقة الصغيرة التي تتولى طليقته التشهير به وبها في كل مكان؟

الدخان والبيرة وأنفاس الصبيان والبنات وحوار الأعين والأيدي والسيقان والقبلات السريعة المسروقة التي تخفيها جدائل الصفصاف المتهدلة على جباه البنات.. تتنوع الأزياء والأشكال والألوان وقصات الشعر والسلاسل والحلقان وتصاوير الوشم وتعلو الصرخات والضحكات

حتى كأنهم يتواجدون في مكان ما خارج المدينة بعيدا عن الأعراف والتقاليد والقانون. قال الطبيب الكبير لندى:

"هذا المكان غير مناسب" لم تسمعه.. انفلتت مسرعة تحجز المنضدة الوحيدة التي خلت لتوها وأشارت فاتجه إليها - يدفع عن عينيه الدخان وجلس. أشار للجرسون وطلب منه تشغيل شفاطات الهواء فأخبره أنها شغالة بكامل طاقتها وما أن انصرف الجرسون حتى همست ندى تطلب منه تجاهل الأمر فلا داعي لإثارة المشاكل وما أن أبعدت فمها عن أذنه حتى هرع إليه صاحب المكان فاردا جسمه مرحبا إذ هو يعرف الدكتور منذ كان طفلا.. قدم نفسه على أنه نزار وهو عراقي.. ابن المرحوم "ساهر حسن" وذكره بوالده الذي كان يعالج عنده في آخر أيامه من "طمس الذاكرة" على أثر إعدام الرئيس العراقي الراحل "صدام حسين" حيث تزاملا - أبوه والرئيس - حين كانا يدرسان معًا هنا في القاهرة وأحبا فتاة واحدة أثناء الدراسة لم تتزوج أيا منهما.. وقال همسا: "كانت شقيقة لفنانة كبيرة معروفة" ثم استسمحه أن يقدم لهما زجاجة شمبانيا كتحية خاصة لتشريفهما المكان رغم أن ذلك يخالف قانون الترخيص. رفض الدكتور يسري واكتفى بالبيرة بناء على رغبة ندى التي راق لها أن تكمل "البرستيج" بشرب البيرة.. أصر الرجل العراقي على تقديم شئ ما "كادو" قالت ندى: "إن كان لابد فأسمعنا شيئا من أغنيات خوليو" انتبه يسري مندهشا كما علت الآخر الدهشة فما الذي

ذكر هذه الفتاة الصغيرة -ابنة عصر الموسـيقى الصاخبة- بخوليو أجليسيوس الرومانسي الحالم.

سألها: "هل تطلب المدمزيل أغنية خاصة"

ردت: الأغنية التي يقول فيها: "هناك دائما سبب لأن تعيش". أضاف يسري: "أغنية الحياة تستمر على الدوام"

ثم حين انصرف الرجل نظر إليها يسري في حب وهمس "كنت افضل أن أسـمع أغنية: من أجل عينيهـا" أو "اليوم لا أقدر على العيش من دونها"

ابتسمت فارتاح..

كان يعرف أنها طلبت سماع خوليو ليس من أجلها ولكن من أجله هو.. هو الذي كان يحدثها عنه كثيرا.. ذلك الإسباني الذي حرك مشاعر العالم بأسره في الثمانينيات من القرن الماضي وحضر إلى مصر وأحيا حفلا حضره يسري وحضره الرئيس الراحل أنور السادات عند سفح الهرم وعاد يسري يحدثها عن خوليو: كان عاشقا للحياة يقضي الساعات الطويلة في جلسات التسجيل في الاستوديو يردد كلمة "أحبك" بثماني لغات قبل أن يتغنى بها.. يختار طريقة الهمس حتى تأتي مشبعة مشحونة بكل العاطفة.

علقت: "فيك منه الكثير" - "فيك منه عشق الحياة"

يندهش يسري إذ تكاد "ندى" تحفظ ما قاله لها عن "خوليو" فهل أصبحت هي ذاكرته الجديده؟ بديلا لذاكرته الأخرى المراوغة؟

بدأت الأغنية - والتي اختارها الرجل - هامسة دفينة تحلق بأجنحتها مغتربة عن المكان والزمان وعاد صاحب الملهى يصفق بيديه ينبه الشباب يدعوهم إلى رقصة هادئة "هيا يا شباب إلى الرومانسية" إلى الزمن الجميل.. فقاموا كسالى

قالت ندى: "قم نرقص"

تجرع يسري زجاجة البيرة بسرعة من حلقها مباشرة وقلدته ندى وخلعت عنه الجاكت وقاما يرقصان.. تأبط خصرها وتأبطت خصره وتماس الصدران وتلاقت في القلبين الدقات

كانت الأغنية تسري بين الراقصين كما تسري النسمة بين سنابل القمح الخضراء.. ناعمة وديعة

"هذه الليلة تبدو كحلم

كعيون حبيبتي مانويلاّ

كأزهار الربيع

وكالبدر في تمامه

كلماتك الرقيقة

يا حبيبتي مانويلاّ

تبدو قلقة

وأحاسيسها كلها سجينة

منذ ظهورك في حياتي

وأنا سعيد من السعداء

أحيا فقط بفكرة واحدة

أني موجود كي أحب مانويلاّ"

.. يحس يسري أنه يعشقها منذ وجد على الأرض وتحس ندى أنها تعبده. كيف تعبر له عن هذا الشعور؟ أن هناك شيئًا ما أعلى من الحياة نفسها.. شيئا تبعثه فيها تلك الأغنية التي يهمس بها هذا المغني يخبرها أن هنالك عالما آخر أجمل وأرقى وأسعد من هذا العالم" لا تراه ولا تحسه إلا الأرواح العاشقة؟ أهو الجنّة؟

انسالت دموعها فجأة وخرجت منها شهقة جعلتها تنفلت سريعا من يدي يسري وتسرع إلى منضدتها تدفن وجهها في كفيها وتواصل البكاء واتجه إليها يسري مندهشا:

"ماذا حدث يا صغيرتي مانويلاّ؟"

رفع وجهها إليه ومسح دموعها فحدقت فيه:

"أمازلت تحبني؟"

فوجئ بالسـؤال وبتوقيته فطلـب منها ألا تشـرب مزيدا من البيرة"

حدقت فيه: "إن كنت تحبني فلماذا تفكر في الموت؟"

"أنا أفكر في الحياة"

كانت تعتريها أحاسـيس غريبة تسيطر عليها تحس معها أحيانا أن يسري مجرد خيال يتجسد لها وأحيانا ترى أنها هي نفسها خيال لذلـك لم يكن يسـري يفهم لماذا تمد يدها فجأة تتحسسـه ولا لماذا تتضبب عيناها بالدموع دون أسـباب واضحة. "هيا.. سنعود إلى البيت". قال وهو يقف:

ردت بحدة: "لا.. لن أعود قبل أن تخبرني لماذا تحبني؟"

حدق فيها مبتسما وهو يجلس:

"انتظري الجواب على لسان خوليو الآن"

قال خوليو: "لا أعرف إلا أن كل ما حققته من سعادة معك... انبثق من الألم عندي"

فجأة تذكرت "ندى" أنها لم تطعم روبي قبل المجيء هنا.. فهمّت

أن تغادر المكان لكن يسري أجلسها مكانها وقد أثارت غيرته من هذا "السنيور" المدلل الذي لم تكتف بتجهيز كوخ له بل أشرفت بنفسها على إقامة الكوخ في الحديقة ودهانه باللون البرتقالي مع رسم صورة لوجه روبي على مدخله بينما كان روبي مشغولا بالفئران التي وردت إلى حديقتهم من حديقة الفيلا المجاورة بعد هدمها ليحل محلها برج شاهق بناه مالك الأرض الجديد تاجر القصب.

"وبينما كان الدكتور منشغلا بحثا عن شركة تتولى إبادة هذه الفئران وعن محام لرفع قضية ضد مالك البرج الجديد الذي حجب عنهم الشمس من ناحية الشرق كانت هي تنحي يسري جانبًا لتتولى هي أمر تاجر القصب.. تصيح فيه "كيف تمنع عنا فيتامين د" "ألا تعرف أن هذا الفيتامين ضروري للعظام؟" ولما كان الرجل جاهلا لا يفكر إلا في شراء أراضي الفلل القديمة وهدمها وتحويلها إلى أبراج فقد كان يتركها تتكلم ويتلفت حوله معاينا أرض القصر يفكر في شرائه بينما هي تكمل دفاعها "ألا تعرف أن أشعة الشمس في الصباح والمساء حين تكون مائلة تعمل مع الجلد على تكوين ذلك الفيتامين الهام؟ والآن عليك أن تهدم دورا أو دورين من برجك للسماح للشمس بالمرور عملا بحق الجار "يبتسم الرجل الذي لا يفهم إلا في عصير القصب ويسأل الزوج إن كان يفكر في بيع هذا القصر القديم؟". ظلت ندى شاردة تفكر في روبي بينما أعلن

الميكرفون الداخلي في الملهى عن أغنية "كريزي هورس" فنهض كل الموجودين فتيانا وفتيات في حيوية ونشاط حتى لم يبق منهم واحد أو واحدة جالسا أو متمددا وبدأت الموسيقى هادئة ناعمة تمهد للآتي فيتخاصر الشباب مع الفتيات.. كل شاب يلف ذراعه حول خصر بنت وكل بنت تحبك ذراعيها حول خصر فتي.. ويبدأون الرقص مع الموسيقى والكلمات المتمهلة للمغني قبل أن تكسوها الموسيقى

"انتبهوا فهذا الحصان مجنون

- هكذا تقول عنه الريح -

لا يعترف بتغير الفصول

وحيدا يرقص في الصحراء ووحيدًا يصهل

هذا الحصان مفتون

يرفض أن يتبع القطيع

تنصحه الطير حين تمر

أن يتبع خطى الآباء

فأبوه عاش يجر العربات

مخلصًا في السير وفي الجري

محكوما بلجام جلدي مشدود

وتقبل أن يُعدم لما شاخ

وشُيعَ للدفن لحمًا طازجًا..

في بطن وحوش السيرك

والجد الأكبر قُتل شهيدا

في خدمة جيش السلطان

تنصحه الريح: اتبع آباءك

فـ يصرخ في الريح:

"لست أنا من نسل الموتى

من نسل قدامى الآلهة أنا

لا أهرم أبدا.. لا أفنى

أرضعني القمر

وغذّتني الشمس

فورثت خلود الاثنين"

وكما لو كانت قد ندهته النداهة فما أن تبدأ الموسيقى حتى ينهض الدكتور يسري وقد انهى زجاجة البيرة الثالثة أو الرابعة يخلع عنه قميصه يلقيه على المقعد ويخلع فانلته الداخلية يلقيها كيفما اتفق ثم

يصهل قافزا إلى حلبة الرقص مندمجا في الموسيقى الصاخبة ومن فورها تدرك ندى أنه غير واع ربما بتأثير البيرة فتسرع وراءه تحاول أن تستوقفه لكن الرجل الكبير يكون قد اندس بين الأذرع والأرجل المتهورة يزاحم الشباب قفزا وصراخا وقد خرج من حذائه ووقاره وعمره بينما يعلو صوت المغني مع صوت الشباب مع صوت الدكتور في الزار الجماعي الراقص:

"من نسل قدامى الآلهة أنا

أرضعني القمر وغذتني الشمس

فورثت خلود الاثنين"

تشده ندى زاعقة في أذنه تنبهه إلى ما يفعل لكن الموسيقى صاخبة داخله وخارجه وحوله تصرخ فيه.. فيصرخ فيها فتبتعد عنه ندى وقد أدركت أنه لم يعد يســـري فقد دخل مع الموسيقى في الحالة الشبقية العليا إلى أن سقط على الأرض بين السيقان.

"لا تعرف "ندى" كيف عادا إلى القصر..

لكنهم أخبروها أنهم حملوه حملا وما أن دخل إلى الحديقة حتى ارتمى على النجيل وظل يبكي بصوت مسموع ولم يعرف أحد لماذا يبكي ولا تمكن أحد من إسكاته إلى أن سقط في نوم عميق.

*

عضة الفأر

ما أن استعاد الدكتور نشاطه قرب العصر حتى هاتفه فرحان يخبره أنه في الطريق إليه.. أسرع الدكتور إلى المعمل حيث الثلاجة التي يحتفظ داخلها بالمزيج يفتحها ليخرج الزجاجة الكبيرة يأخذ منها الجرعة اللازمة لحقن فرحان لكنه تاه قليلا عن باب المعمل.. فيما قبل كان ينسى أسماء الناس ثم أصبح ينسى أسماء بعض الأشياء وبعض الأماكن وها هو ينسى اتجاهه.. بينما كانت "المرسيدس" تطوي الشوارع في طريقها إلى القصر يقودها فرحان يساعده "كوكو" بصيحاته العالية يفتح له الطريق جالسا في المقعد الخلفي مطلًا من النافذة بينما شروق تريح خدها الذي تبلله الدموع على كتف المحبوب.

أحقا ستزف الليلة؟ أحقا ستتيح لها الدنيا لحظات من الفرح قبل أن تودعها؟

كانت قد فكرت كثيرا وأجهدت العقل والجسم المجهدين أساسا حتى وصلت إلى الحالة التي هى عليها الآن والتي لابد تشبه الحالة

التي يحسها المحكوم عليه بالإعدام مباشرة قبل التنفيذ تحسها كانسلاخ الروح بعد طول معاشرة عن الجسد الذي أحبته وعاشت فيه وعاش فيها.. كعاشق ومعشوق.. لقد طال المرض كل أجزاء جسمها: الرئتان أصيبتا إلى حد السعال الدائم والذي يظنه فرحان مجرد حساسية يأتي مع اقتراب الشتاء والمعدة أوصلتها أنها لا تكاد تغادر الحمام والجلد نفخته الأورام.. كيف تدفع عنها كل هذه الآلام؟ وما هذه الحياة التي تخضع للحظ؟! لو لم تكن أمها قد تزوجت أباها ثم ماتت ما كان أبوها قد تزوج تلك المرأة القاسية التي دفعت بها إلى ذلك المدرس الضعيف وما لم يكن ذلك الزوج قد استمع لأمه العجوز وطلقها ما أتت إلى القاهرة لتجوع وتتعرى وما لم تذهب للمقابر ما اغتصبت ولا انتقل إليها المرض القاتل.. سلسلة من الضربات المتوالية ولكن هذا هو القدر يا فاطمة هو الوعد والمكتوب؟

توقفت المرسيدس أمام الباب الخارجي لحديقة القصر ونزل منها فرحان فوقف له "عم عبده" مندهشًا لتحول الموتوسيكل إلى عربة ضخمة فخمة!

ودخل الثلاثة فرحان في بدلة سوداء يبرزها قميص أبيض له جناحان مرفرفان تعلوه ربطة عنق حمراء ويتوج رأسه تسريحة شعر شبابية وتختفي العينان وراء نظارة شمسية أنيقة غالية الثمن وعلى الأرض يتألق حذاء لامع كمرآة له بوز طويل بينما يقف "كوكو" بجوار صديقه منفوشا كحارس خاص في حين تبدو شروق بجانبه

كشمس في طريقها للغروب.. لمحهما الدكتور يسري وهو ينزل سلالم القصر حاملا الدواء كانت خطواته وهو يتجه إلى فرحان خطوات قائد خطط وجهز وأعد لإدارة المعركة الفاصلة ضد العدو بينما كانت "ندى" التي تسير إلى جواره تحاول أن تثنيه عما سيفعل فالدواء قد يحمل طول العمر إلى فرحان كما قد يحمل الموت الصاعق في نفس اللحظة كما أخبرها وأسرّت ليسري بمخاوفها فغمغم في حسم: "لا تتدخلي في أعمال الكبار" مطت شفتها غاضبة كطفلة: قائلة في عناد: "سأتدخل". توقفت خطواته على السلم يخبرها أنه حين يتصرف كطبيب فإنه يتبع العقل والتجربة وسبق أن أخبرها عن الخلايا الجذعية - آخر اكتشافات الطب - والتي هى خلايا حرة غير متخصصة - كدوائه - يحصلون عليها من الأجنة والمشيمة والحبل السري يحقنون بها الجسم فتتوجه إلى العضو التالف فيه تعيد بناءه حيث تتشكل حسب خلاياه.. وأخبرها أنها حققت نجاحا كبيرا وأنها تستخدم الآن في عمليات التجميل وإزالة التجاعيد والخشونة حتى أن الطب يتطلع إلى إعادة الرؤية لمرضى السكر الذين كفّ بصرهم! أليس هذا هو نفس الطريق الذي يتبعه ولنفس الهدف لا يفترق عنه سوى في سرعة الإنجاز وصولا للحل النهائي؟

بدت ساعتها كأنها اقتنعت لكنها فاجأته بسؤال برئ:

"وهل حققت تلك الخلايا الجذعية نجاحا مع الخلايا العصبية للمخ؟"

قال: أتقصدين الزهايمر؟

قالت بوضوح: نعم.

صمت قليلا ثم أخبرها عن تلك الحالة لفتاة أولمبية في مثل عمرها سقطت أثناء الجمباز وكسرت فقرات عنقها -حيث تمتد الخلايا العصبية داخل النخاع- وأصيبت الفتاة بشلل رباعي.. وحقنت بالخلايا الجذعية فتحركت.. ابتعدت ندى عنه قليلا ظنا أنه يحكي لها قصة من خياله كي يقنعها

"وهل عادت تمشي"

"ستمشي.. ستمشي" قالها وكأنه ينهي الحوار

وأخـــذ يفكر: مـــاذا لو مات فرحان فعـــلا الآن وهنا في القصر وشهد موته السائق والبواب؟ فيما قبل مرّ موت "حامد" بلا شكوك ولكن هذه المرة قد تكون فيها نهايته سيكون قاتلا بحق كما وصفته "رشـــيدة" ذات يوم وسيقضي بقية عمره في السجن ذليلا مهانا إن طالته الرأفة ولم يطالب الرأي العام بإعدامه.

وهمس لنفسه "أنت قائد الآن ومقدم على معركة فتسلح بما هو إيجابي فقط" اقترب مبتسما يحيّي فرحان دون أن يسلم عليه باليد فقد ضايقه أن فرحان لم يخلع عن عينيه النظارة الشمسية تقديرًا واحترامًا ومع ذلك ابتلع ضيقه مبررا ذلك بجهل فرحان بالأصول وعاد يبتسم

يدعوه للجلوس معه أمام حمام السباحة لتناول الشاي فاعتذر فرحان مبررا ذلك بأنه مشغول ولا وقت لديه "يبدو أن امتلاكه لفيلا جعله يحس أنه ندّ لي" ومع ذلك داعبه مشيرًا إلى كوكو: "هل أحضرت لنا الراقص الفريد؟" رد عليه فرحان: "إنه صديقي المخلص" فنبهه الدكتور إلى أن الطيور تنقل أمراضا قاتلة للإنسان فعلق فرحان "والإنسان يقتل أخاه الإنسان دون مرض"

في ذلـــك الوقت كانت "ندى" تصحب "شــروق" عبر ممرات الحديقة تطلعها على أنواع الزهور حتى إذا فكرت في إنشاء حديقة بفيلتها الجديدة كانت قد اكتسبت خبرة.. كانت "ندى" قد أحبت وجه "شروق" الشاحب وجســمها النحيل غير الكثيف وصوتها الهامس الخفيض الخارج من بين فجوات سعالها كالآهات وبررت ندى عدم تبادل قبلات الترحيب منها أن ذلك خوفا من نقل "الســعال" وحين سألتها "ندى" إن كان هذا الفستان الوردي الجميل هو فستان الزفاف ردت عليها شروق بابتسامة باهتة "ربما" وحين عادا من جولتهما معا في الحديقة عاد الدكتور يســري يفحص بعين الطبيب الهزال والســعال والنظرة الشاردة عند شــروق وأبدى ملاحظاته لفرحان همســا "أهي مريضة؟" فلم يهتم فرحان فعاد الدكتور يركز تفكيره في تلك اللحظة الفارقة التي سيصل فيها المزيج إلى دم فرحان لتبدأ المعركة الفاصلة.

"هل أنت مستعد يا بطل؟"

ظنه فرحان يسأله عن الزواج فرد "تماما"

مد الدكتور يده يشـــد على يده فتجاهلها فرحان.. فوجئ الدكتور وعلت وجهه الدهشـــة فمال على "شروق" يســألها عما به فكانت المفاجأة همست له شروق:

"من فضلــك.. فرّق بيننـــا.. أنا مريضة بالإيــدز في مرحلته الأخيرة.. حاول أن تنقذ فرحان"

اختلط الأمر على يسري فظن أن من تحدثه هي ندى لا شروق فأخذ يحدق فيها ويحاول فصل هذا الخلط؟!

اختل توازنه للحظات وفقد القدرة على الإبصار الكامل أو التفكير لكنه اقترب من فرحان يطلب منه خلع الجاكتة وتعرية ذراعه لحقنه لكنه فوجئ بما لم يتوقع إطلاقا.. طوح فرحان بالحقنة بعيدًا في الهواء وانفجر كبركان:

"ولماذا لا تحقن نفسك أنت لتستعيد شبابك؟ لماذا تجربه عليّ؟ لقد اكتشفت حقيقتك.. كنت أشك فيك منذ أخرجتني من البرميل مدعيا انك جنّي من تحت الأرض بينما أنت شيطان.. منعتني من الاتصال بالأستاذ عابد حتى لا أعرف من أنت لكنني ذهبت إليه وعرّفني انك مجنون اشتعل جنونك منذ وقعت في هوى تلك الفتاة الصغيرة

التي بسببها طلقت زوجتك.. أنا لست فأر تجارب يا دكتور.. لست خادم المصباح الذي تأمره فيطيع.. يقول لك شيطانك: "هذا رجل لا أهل له تخلى عنه أبوه وامه منذ ولد ولن يسأل عنه أحد إن مات" لم تفكر في أنني أحب الحياة مثلك وانني اعشق كل ما فيها وانني أسعى إلى أن تكون لي ذرية وأن انجب العديد من الأبناء والأحفاد لأصنع لنفسي عائلة تخلد اسمي.. لتعلم أن الأستاذ عابد قرر رفع قضية دولية ضدك يتهمك فيها بإجراء تجاربك القاتلة في الخفاء على البشر مخالفا كل القوانين متجاهلا منظمة الصحة العالمية وسأكون شاهدا ضدك وستكون الدكتورة رشيدة شاهدة ضدك وستقضي بقية عمرك في السجن منبوذا من الجميع".

أفرغ فرحان كل شحنته المكتومة وأشار لكوكو فقفز إلى كتفه وأشار لشروق فودعت "ندى" ثم غادر الثلاثة للخارج ولم يعد يسمع في الشارع سوى صوت المرسيدس يبتعد ويتلاشى.

بقى الدكتور جامدا مكانه تمثالًا من الذهول ثم استدار بطيئا ساحبًا جسمه إلى سلالم القصر يحاول ترتيب عناصر المشهد بينما "ندى" مغمضة عينيها لا تحب أن تراه في هذه الحال من الهوان.

أتت نسائم الخريف مبكرة إلى الحديقة حاملة شيئا من بقايا بهجة الصيف وشيئا من أحزان الشتاء.. فتحت النسائم الأزرار العليا في

قميص ندى وفتحت معها أزرار القلب فراحت تتمشـــى في الحديقة يتبعها روبي صامتا.. أهكـــذا تحرمها الحياة الصديقات واحدة بعد واحدة.. بعد أن رحلت مريم صديقة العمر ترحل شروق. في الأسبوع الماضي زارتها مريم تخبرها أنها سحبت أوراقها من الجامعة وأنها جاءت تودعها قبل أن تسافر.. انزعجت ندى تسألها: إلى أين؟

قالت: فرنسا.. فقد انتقل عمل أبيها - كقنصل - إلى هناك وسيأخذ معه الأسرة وأضافت أنها ستتزوج هناك وسألتها ندى عن جنسية العريس: فرنسي أم أمريكي أم مصري أم عربي أم من كوكب آخر فالملائكة لا يتزوجون في الأرض!

لم تجب مريم لكنها فتحت حقيبتها وأخرجت منها كتابا فتحته: "اسمعي هذه القصيدة أولا لشاعر أمريكي كبير اسمه والت ويتمان".. وأخذت تترنم:

"واصطفت البراهين والأرقام

في أعمدة طويلة أمامي

وعُرضت عليّ الخرائط والرسوم البيانيّة

لأجمعَ وأطرحَ وأقسّم وأقيس

وسمعتُ التحقيق للمحاضرِ والمحاضراتِ

في الأروقة والقاعات

لا أدري لماذا طفح كيلي فجأة

وانسللتُ خارجًا تاركا كل هذا الضجيج ورائي

ورحت أمشي في الليل

وحدي

أنظر بصمت إلى النجوم"

قالت مريم:

"سأتزوج نجم النجوم.. المسيح.. فقد قررت أن أدخل الدير وأن أكون راهبة"

*

أمام شهوة عقله يقف الدكتور يسري لأول مرة: مطالبًا أن يفَرق بين عاشقين.. ساهم هو في قصتهما.. كان صوت شروق وهى تطلب منه ذلك ضعيفا مهزوما هى بلا شك لا تريد أن تترك الحياة وهي في هذه السن! وتجسدت أمامه ندى فكاد يُجن..

هذا الفيروس ينتقل عن طريق الجنس فهل مارست شروق الجنس في الخفاء دون علم عايش وبهذا تكون فتاة سيئة ومخادعة أم يكون المرض قد انتقل إليها عن طريق نقل الدم الملوث كما حدث لندى. ومال إلى هذا الاحتمال فشروق يبدو أنها كانت تعاني من أنيميا حادة نتيجة سهرها وإجهادها طوال الليل تبيع المناديل علاوة على سوء التغذية فاضطرت أن تبيع شيئا من دمها فأنتقل إليها المرض أثناء ذلك.

هو لن يتخلى عن عايش مهما حدث فلابد أن يكمل التجربة فهو الذي أصابه بالمرض وهو المسئول عن شفائه حتى لو اضطر إلى خطفه..

دخلت عليه ندى غرفته تحاول أن تؤنسه مدركة أنه مصدوم من تصرف فرحان.. واقتربت تهمس له "هل أصنع لك فنجان قهوة؟"

"لا".. رد بسرعة لم تتوقعها.. "أيعني بهذا الرد أن تغادر الحجرة؟"

اسقطت جسمها على الشــيزلونج في حركة عناد وجلست "لن اغادر ولن اصنع أي قهوة.. أنا شريكة حياتك ولابد أن اشاركك في كل شئ.. لم أعد صغيرة وأنت لم تصبح زاهدًا.. قل لي فيم تفكر ولا تقل إنك تفكر فيّ.. أنت تفكر في فرحان وأنا أفكر في شروق."

ووجد نفسه يعرض عليها حالة شروق.. فلم تفكر بل صاحت به على الفور: "انقذها.. انقذها بأي طريقة"

***

في الظلام وصل الدكتور إلى قرار قد يبدو صعبًا لكنه الطريق الوحيد.. سيبلغ الصحة عن شروق لإبعادها بصفتها حالة متقدمة ميئوس منها بينما يبقي على عايش على أنه سليم ثم يخطفه ويحقنه رغما عنه. وقبل أن يضيء النور أحس بأجنحة ترف أمام عينيه فأضاء النور فلم يجد شيئًا.. لعله الإجهاد.. عاد يطفيء النور ليتأكد فعادت الأجنحة مصحوبة بصوت أنفاس تتردد فأضاء النور من جديد واخذ يجول ببصره في المكان حتى رآه.. خفاشًا كبيرًا يقبع في زاوية من زوايا السقف يحدق فيه بعينيه الصغيرتين وفمه الذي

لا يكف عن النبذبة.. كان وجهه تمامًا كوجه الفأر قال لنفسه: مجرد خفاش تسرب من القبو وكطبيعة الخفافيش تطير في الظلام وتختفي في النور فترك النور مضاء ففوجيء بالخفاش يغادر مكانه ويطير حول راسه وأمام عينيه في دورات سريعة تعلو أنفاسه ويضرب وجهه بأجنحته الجلدية فأمسك يسري بالوسادة وقذفه بها فاخترقها ولحظتها تعرف عليه.. إنه "هو".. لم يتحرك يسري وهو يراه لأول مرة فأرًا لا أكثر وبينما كان الخفاش تعلو أنفاسه ظل يسري يعيده فأرًا صغيرًا لا يكبر ولا يُخيف وظل حجم الخفاش ينكمش أمام يسري بالفعل إلى أن غادر المكان واستعاد الرجل ثقته بعقله.

*

الغرفة التي سيقضيان فيها شهر العسل بالفيلا واسعة كما طلب عايش من مهندس البناء حتى يعوض السنين التي عاشها في البرميل الضيق كما كان السرير واسعا وكبيرا ومذهبا والمراتب لينة وفخمة وغالية الثمن.. لا يهم.. فالمال موجود ولا شئ في الوجود أغلى ولا أثمن من عروسه.. كان عريسا بحق.. قص شعره على آخر موضة.. وكحت لحيته وارتدى بيجاما حريرية تحتها.. أندروير ملون ورش جلده بـ"سبراي" دفع فيه مئات الجنيهات رافضا أن يأخذ "التقليد" الرخيص مصرا على الأصلي الآتي بالطائرة للناس الكلاس.. وهل ينقصه شئ عن هؤلاء الكلاس؟ هو يملك الفيلا الفخمة مقامة على أعلى مكان في مصر: جبل المقطم ويملك العربة المرسيدس - وإن رغبت شروق وطلبت الـ B.M.W فسيحضرها بالموبايل "الآبل" الذي لا يقوى على شرائه إلا القادرون أمثاله إذ وصل ثمنه إلى خمسة وعشرين ألف. اقترب منها وجلس على طرف السرير منتظرا الإذن كما يفعل أبناء الذوات.. وضحك في عبه إذ تذكر حكاية كانوا يتداولونها في القرية عن أحدهم ليلة الدخلة إذ

ما أن أغلق عليه الباب هو وعروسه حتى خلع هدومه كاملة وصعد أعلى الدولاب ثم قفز إلى السرير مطلقا صيحة الفاتحين طائرا نحو عروسه المنكمشة يريد أن يريها قوته وجبروته من أول ليلة كما نصحته أمه فوقع بهما السرير وكسر عموده الفقري وحملوه على نقالة هو يصرخ وأمه والعروس مولولات وراءه.. يعلو ضحك عايش وهو يخبرها أنهم حملوه على النقالة عاريا ومنتصبا كما لو كان يرفع العلم!

لم تكن الضحكة قد غابت عن وجهه حين التفت إلى شروق متوقعا أن تضحك ففوجئ بها قد انسابت دموعها في صمت.

اقترب منها فابتعدت حتى التصقت بالحائط فسألها عما بها

لماذ تبكين؟ هل ينقصك شيئ؟

همست: العمر...: أنا محجوزة يا فرحان

لمن يا شروق؟

قالت: للموت

أسرع يكمم فمها: "لا تواصلي الكلام"

احست بيده على فمها فغمرتها تقبيلا.. دار به المكان ودارت معه الدنيا كلها بينما انكفأت هي على وجهها في السرير وغابت برهة ثم حين اعتدلت كانت عيناها قد اكتست باللون الأحمر ولم يتوقف

السعال فأسرع عايش وأحضر لها كوب ماء شربته وما أن توقف السعال قليلا حتى نظرت إليه وطالت نظرتها "سأموت يا عايش". هذا هو حظي.

صاح: لن تموتي.. لا تصدقي الحظوظ.. ستعيشين يا شروق وسيكون لنا أبناء وأحفاد. واقترب منها فدفعته عنها: "لا تقترب.. مرضي معدٍ" ثم غابت تنظر إلى لا شيء.. "هذه الدنيا حلم ونحن نائمون.. هي تحلم بنا ونحن نحلم بها ولا يصحو أيٌ منا" تركها عايش لبعض الوقت وأبعد وجهه يجاهد ألا يبكي.. قال له حدسه أنها مريضة فعلا وأنها قد تموت فعلا وأن مرضها كما تقول معدٍ ومع ذلك أصر أن ينجب منها.. أن تحمل منه وأن تلد له. صرخ: لن تموتا.. لا أنت ولا هو.. لن يقبل الله أن يميته قبل أن يتكوّن ولن يقبل أن يميت أمه قبل أن ترضعه.. ارتمت عليه وارتمى عليها تحاول أن تهرب فيه ويحاول أن يعطيها روحه وتداخلا.. ولم يكن ما بينهما متعة بل كان عذابا.

***

التقط الدكتور تليفونه المحمول يتصل بمستشفى حميات إمبابة يخبرهم أن هناك حالة متقدمة لمصابة بالإيدز وأعطاهم العنوان بالمقطم وعليهم الا يتباطأوا في عزلها.

سمعته ندى التي كانت على وشك الدخول إليه فتوقفت خارج الباب لا تكاد تصدق!

من هذا الرجل الذي يفرّق بين محبين اثنين بهذه القسوة؟ أحست ببرودة شديدة وخوف أشد حتى لم تعد تتحكم في رعشة جسدها وقادتها أفكارها إلى أن هذا الدكتور لا أمان له وأن ما يسيره هو عقله الشاذ وأنه يمكن أن يتعامل معها بنفس العقل وبنفس الطريقة معتبرًا إياها حالة تحت المراقبة وانتهت إلى أنه لابد أن تتركه حالًا فأسرعت إلى حجرتها ترتدي ملابس الهروب ثم نزلت إلى الحديقة تضم شالها إلى صدرها ثم توقفت تتأمل القصر وتودعه:

"ها هى الجنة التي نشأت فيها وأحبتها وشهدت أنفاسها صغيرة وناضجة.. من نوافذ قصرها كان يدخل إليها النور مع شروق الشمس عبر الزجاج الملون لتفرش الشمس ألوانها السبعة في الكوريدور الطويل الذي تنفتح عليه أبواب الغرف الداخلية..كانت لها غرفة تسكنها مع الأقمار والنجوم والفراشات وهذه الزهور في الحديقة هى التي نسقتها وروتها.. أتترك كل هذا وترحل، وروبي هل سينساها؟

فاجأها يسري من الخلف: "لن ترحلي"

صاحت بأعلى درجات صوتها: "انقذ شروق"

قال: لا أمل.. Hopeless

قالت: أنت قاتل

قال: في الحرب إما النصر أو الهزيمة

زعقت: أنت مجرم

صفعها. صفعته. واندفعت تجري نحو الباب الحديدي فاعتقلها آخذًا بشعرها معقوصًا بيد عصبية يكاد ينسلخ عنها.. لم تقو حتى على الصراخ لكنها صرخت مستنجدة بالبواب فهرول إليها يحاول التدخل لكن عيني يسري أعادته مكانه ثم واصل يقودها أمامه كحوذي يتحكم في فرسة حرون.. صعد بها السلالم لا ينطق ولا هي تنطق.. عبر بها الكوريدور ثم ألقاها على أرضية مكتبه وأغلق الباب فتوقعت الهلاك لكنها فوجئت به يركع أمامها:

"كوني معي.. ساعديني"

وانحنى عليها فاستكانت له

بدا لها شديد الجاذبية

وبدت له شديدة الإغراء

اعتذرت عيناه فغفرت شفتاها

قال: أحبك.. قالت: أعبدك

اختلطت أنفاسه مع شهقاتها

علت دقات الطبول

وانسجمت أوتار النايات

اقتربت الشفاه أكثر.. وتوقفت

أغلقت عينيها وحين فتحتهما كان يقف بعيدًا.. أسرعت إليه تضربه في صدره بكل إحباطها فلم يتحرك فاندفعت خارجة تصرخ:

أنت عاجز.. أنت عجوز.

*

کوکو

ماتت شروق.. فقرر فرحان ذبح الـ"كوكو"

ســـحبه إلى حديقة الفيلا فأطاعه ثم تســـلل هو إلى المطبخ وفتح درج السكاكين وشد أطول سكين فيه وأخذ يسنه على المسن.. الشرر يتطاير من حديد الســـلاح والنار تتطاير من عيني فرحان.. لم يعد يفكر بعقله.. لم يعد يرى.. يســـن الســـكين ويبكي ثم يشفط دموعه ويحدق في الفراغ: "لابد أن هذا الطائر هو الذي نقل إليها المرض.. حذرني منه الدكتور يسري".

قال: "إن الطيور تنقل أمراضا قاتلة".

"أنت لا غيـــرك" "يصرخ" لماذا لم تنقل المرض لي أنا أيضًا؟ لماذا تفرق بيننا.. اتخذتك صاحبا وصديقا فإذا بك الشـــيطان الذي دخل إلينا الجنة"

الطائر المندهش يحدق في فرحان وفي السكين يحاول أن يفهم لماذا تحول هذا الرجل الطيب إلى جزار! لماذا تحول البياض في عينيه إلى اللون الأحمر؟

يتكرر المشهد أمام فرحان بلا توقف.. كيف اقتحم لابسو الكمامات الفيلا وكيف اتجهوا إلى شروق يكممونها ويحملونها حملا أمامه وهي مستسلمة لهم كدجاجة تساق إلى الذبح وكيف ظل يصرخ فيهم "إنها زوجتي" فلا يلتفتون "إنها حبيبتي" فلا ينتبهون.. شل اثنان منهم حركته إلى أن خرجوا بها متوجهين إلى السيارة.. أخذ يصرخ "خذوني معها" لكنها همست من بعيد "لا.. اتركوه" ثم شهقت وتدلت يداها.

"أنت القاتل لا غيرك" يقترب من الديك شارعا سلاحه فيتقهقر كوكو زاغرا فيه يحاول أن يفهم.. ينفخ ريشه ويطلق صيحته كأنما يذكره بنفسه لكن لا فائدة يظل السكين مشرعا.. كيف عرفوا أنها مريضة؟ من أبلغهم عنها؟ من أعطاهم عنواننا؟ ربما كانت تكح أحيانا ربما كانت أحشاؤها مرتبكة ربما كانت هناك أورام مختبئة في جسمها لكنها لم تكن تشكو. كانا يرسمان المستقبل ويعدان العدة للوليد.. هي تقول سأسميه على اسمك: فرحان حتى يكون لدينا فرحتان في البيت وهو يقول أنا أريدها بنتا وسأسميها شروق حتى يكون لدينا شمسان. يصيح في لابسي الكمامات: "ابني في بطنها.. بنتي في بطنها" فلا يردون.. يعود يصرخ في الديك "كنت تعرف أن أنفاسك ستكون سببا في شقائنا.. كنت ترقص في الأفراح رقصة الفرح علنا وترقص لنا هنا رقصة الموت في الخفاء" سأذبحك مرتين سأضعك في الماء المغلي أولا وأنت حي ثم ألقيك للقطط والكلاب بعد

سلخك تنهش لحمك السام.. ماذا يمكنني أن أفعل بك أكثر من ذلك قل لي.. الديك يتراجع وعينيه على السكين.. يرقص له ويكاد ينطق.. لكن عيني فرحان لا تريان فالمشهد أمامه ملحّ وقاس وهم يسحبونها بعيدا بينما تمتد كفه ليمس كفها فيفصلون بين الكفين بضربة واحدة من يد أحدهم.. يحاول فرحان عضه لكن الآخر يدفعه في صدره فيوقعه أرضا ويسحبونها بينما هى ترجوه أن ينساها؟

الجزار يتقدم.. يقفز الديك.. يعتلي سور الحديقة وينط إلى الشارع.. ينط وراءه فرحان يقفان في الشارع وجها لوجه: الرجل شارعًا سكينه والديك شارعا منقاره.. يلتف حولهما العابرون يظنون أنه يريد الإمساك بالطائر ليذبحه كوجبة دسمة تحاول الإفلات.. يجري الطائر فيسرعون وراءه.. يضيقون الدائرة حوله.. يتلفت كوكو حوله محاولا الخروج من الحصار لكن الحصار محكم.. تضيق الدائرة حوله أكثر وتمتد الأيدي والأظافر لتمسك به.. وفي لحظة واحدة لحظة حاسمة ينتفض الديك بقوة ويرتعش بعنف وينفش ريشه ويطلق صيحة مدوية ثم يرفرف بجناحيه ويعلو فوق الأرض ويطير مختفيا في السماء!

*

القبو

تبدى القبو لفرحان كقبر واســع فحاول أن يتكيف معه إذ لم يعد شـــئ يعنيه بعد أن ماتت "شروق" أخذ يتلفت حوله فلا يرى سوى رجُليــن منهمكين في عملهما كأنهما حفــارا قبور يعدان له المكان لإقامة طويلة.. يزيلان قصاري الزرع القديمة وأدوات الفلاحة التي لم تعد تستعمل وأحذية وملابس متهرئة ومهملة يضعونها في برميل صدئ مركون.. ماذا سيفعلون به؟ يسأل فرحان الرجلين المنهمكين في كنس المكان وتنظيفه لكن لا أحد يجيب كأنهما شــبحان.. يغادر الرجلان القبو ويعودان بسرير حديدي جديد ينصبانه ويضعان عليه مرتبة ويفرشانه بالملاءات والوسائد الملونة ثم يعطران الجو حوله ويخـــرج أحدهم ليعود بمنضدة عليها وليمة كاملة ويقول له أحدهما "كل" كيف ســيأكل ويداه مكتوفتان خلف ظهره؟ ولماذا يأكل؟ بل ولماذا يعيش؟ تبادل الرجلان النظرات ثم فكا وثاقه وأعادوا تكتيفه بطريقة جديدة تسمى "إيد ورجل" ليحررا له إحدى يديه كي يأكل.. شدا الساق اليمنى بعد ثنيها خلف الفخذ إلى الذراع اليمنى وربطاهما معا وبذلك شلت حركته من جانب وترك له الجانب الآخر متحركا

وبهذا تحددت حركته قفزا لا أكثر فيستحيل عليه الجري أو الهروب ثم غادرا المكان وسمع فرحان صرير القفل في الباب من الخارج. لم يتحرك ولم يأكل.. جلس على المقعد أمام المنضدة يتأمل الطعام.. دواجن محمرة وأرز وخبز وسلطات وفاكهة.. لم يلفت نظره من كل هذا سوى سكين صغير لامع له بوز حاد وضع بجوار البرتقال غالبا لتقشيره.. لمعت عينا فرحان مع لمعة السكين ومد يده الحرة والتقطه ثم أخفاه تحت ملابسه.

تركه الدكتور -بعد خطفه- ليومين في القبو حتى يتأقلم مع المكان بينما ظل فرحان يسنّ السكين طوال هذه الفترة في أرضية القبو الإسمنتية.. في البداية لم يكن يأكل كان ينظر للطعام ويبكي إذ كيف يأكل وحده دون شروق؟ وأي طعام سيحس به وقد ذهبت ولن تعود؟

يدخل إليه عبده البواب بالطعام ثلاث مرات في اليوم صامتا لا ينطق لا يسأل ولا يجيب ويدخل السائق بملابس وغيارات جديدة يلبسها بعد أن يحممانه كما لو كانا "يغسلانه" استعدادا للإعدام ولم يكن يجد أي سبب لتركهم لحيته دون حلاقة! ولماذا يبحث عن سبب وهو لا يجد سببا لظهور شروق فجأة في حياته واختفائها فجأة بل لا يجد معنى لأي شئ ولا للحياة نفسها! يخشى "فرحان" أن يجن في تلك الزنزانة الانفرادية التي يقيدونه فيها حتى أصبح

يحدث الحيطان! يقول لنفسه.. لابد أن أجد لحياتي معنى.. وحدد المعنى أخيرا في قتل الدكتور يسري وعاد يسن السكين ويشحذه حتى أصبح حادا كالموس وفكر في أن يجربه في حلاقة لحيته لكن يدا واحدة لا تكفي للحلاقة لكنها تكفي للطعن.. لذلك ما أن أحس بصوت الدكتور يسري يحدث شخصا ما خارج القبو وسمع صوت المفتاح في قفل الباب واطمأن لوجود السكين تحت ملابسه حتى ملأ عروقه دمًا وجلس على الأرض يدعي الاستكانة في حين وقف الدكتور أمام فتحة الباب يحدثه بلطف:

"كيف حالك الآن يا صديقي؟"

يزوم عايش ولا يرد

"عرّ ذراعك يا عايش لأعطيك الحقنة" وعرى عايش ذراعه وما أن اقترب منه الدكتور حتى هب عايش يخرج السكين من صدره يشرعها في وجه الدكتور الذي فوجئ فتراجع مبتعدا بينما عايش يحجل ويتقدم وهو يزوم كحيوان يحاول أن يحصر ضحيته في ركن وسدد السكين فصدها الدكتور بذراعه وتدفق منها الدم الذي أشعل غضب فرحان أكثر فأخذ يصيح "سأقتلك" ثم رمى نفسه على الدكتور مصوبا السكين إلى قلبه رأسا وفي تلك اللحظة سمعت صرخة مدوية أسقطت السكين من يد فرحان كانت صرخة ندى التي وقفت تراقب المشهد من فتحة القبو وأسرعت بمسدس التخدير إلى أنف

فرجان الذي تهاوى وسقط لتوه أرضا واندفعت تشد يسري للخارج لكن يسري انفلت من يدها ودفعها عنه بغلظة فخرجت تتعثر في خوفها إذ لم تر في عينيه في تلك اللحظة إلا الجنون.. التقط يسري زجاجة الماء الموضوعة مع الطعام وأسرع يصب منها على رأس "فرحان" وهو ينادي عليه ويهزه حتى أفاق" وما أن أفاق حتى قفز عليه الدكتور وقد دبت فيه قوة مفاجئة وطرحه أرضًا فاستسلم فرحان فحقنه الدكتور وهب مبتعدا عنه يراقبه.. وعلى الفور ارتعش جسم فرحان وانتفضت يداه ورجلاه واتسعت حدقتا عينيه واختل تنفسه وخرج لعابه زبدا.. نفس ماحدث لحامد الجنايني.. قبل أن يموت انقبض الدكتور ولم يعد يعرف إن كانت هذه رعشة الموت أم رعشة الحياة؟ الأمر مختلط ولكن اللحظة الحاسمة لم تحدث لم ينتصر أيهما: الدواء والفيروس.. الحياة والموت.. الجسد في حالة صراع تماما كما يحدث للملبوسين في حالات الزار حين يتشبث الشيطان بالجسد الذي يسكنه رافضا مبارحته.. الصراع يدور عنيفا في الداخل والجسد يجاهد أن يتحرر والشيطان يتشبث أكثر ودقات الزار تعلو وتعلو صاخبة تصم الآذان والرجل يتلوى أمامه على الأرض ويتحشرج صوت الدكتور:

"لا تستسلم.. تتحرر.. الديك المستأنس طار.. الديك المستأنس طار"

يتقافز الدكتور حول الجسد المنتفض متنقلا من حلقة الزار إلى حلبة الملاكمة "اضرب في كل مكان.. في الرقبة وفي العينين وفي الأسنان وفوق الحزام وتحت الحزام.. إنها الحرب.. النصر أو الموت".

يزداد ارتعاش الجسد الممدد ويزداد معه ارتعاش الدكتور وتقلص عضلاته يتشنج صوته وهو يحجل حول الجسد الغاضب يأمره كما تأمر الكودية الجسد الملبوس:

"اقتل من يقيم عزاءك داخل دمك

من يترصدك ويترصد الناس جميعا

إنه محاصر داخلك.. يريد أن يصرعك

كن أنت الأسرع..

لست وحدك..

العالم يتوحد فيك الآن

الحرب العظمى دائرة فيك

الحرب المشروعة

كن أنت الأقوى

الحب معك

الحب يقود الحرب لأول مرة في التاريخ

الحب يقود الحرب ليقيم المملكة الحلم

مملكة الإنسان بلا آلام.

أسرع السائق والبواب يخرجان الدكتور من القبو وهو مايزال يصرخ بلا صوت يساعدانه في الصعود إلى حجرته وهو يردد كأنه غائب عن الوعي: "الحب يقود الحرب" "الحب يقود الحرب"

ولما لم يكن لتلك الكلمات معنى في أرض الواقع فقد اعتبرها كل من السائق والبواب هذيان رجل كبير وقع في حب فتاة صغيرة فأفقدته عقله!

*

ما هذا الفيروس الذي غيّب شروق والذي جنّد له الدكتور يسري كل وقته وكل اهتمامه؟ اتجهت ندى من فورها إلى حجرة الحاسب الآلي تسأله، فأمدها "جوجل" بكل المعلومات عن ذلك القاتل المحترف الذي لا يكاد يُرى حتى بالميكروسكوب العادى لكنه يتصرف كما لو كان عقلا خبيثا واعيا.. هذا الكائن الدقيق يدخل إلى جسم الإنسان عن طريق الدم الملوث أو الجنس الكامل أو حتى القبلة العميقة التي تدمي الشفتين وما أن يدخل إلى الجسم حتى يبدأ رحلته المميتة فيقوم -كأي لص- بخداع خلايا المخابرات في الدم وهي الخبيرة والمسئولة عن فرز ومعرفة العدو من الصديق فتسمح للصديق بالمرور وتعترض طريق العدو وتلتهمه فإذا بهذا الفيروس يخدعها فيغيّر من شكله الخارجى حتى يبدو كصديق فتسمح له بالمرور وما أن ينجح في الخطوة الأولى حتى يبدأ العمل فيجنّد لخدمته "رسولا" قريب الشبه منه في تركيبه ويحمله شفرته الخاصة (D.N.A) ليحقن بها خلايا المقاومة في كل أجزاء الجسم - وهي الجيش الحارس لسلامة وحياة الجسم كله - فيرتبك عقل الخلية وبدلا من أن تنتج

نفسها لتعوض التالف منها تقوم بإنتاجه هو؟! وشيئا فشيئا تتلاشى خلايا المقاومة ويحل محلها خلايا الفيروس إلى أن يصبح الجسم كله -وقد فقد جيشه الحامي- عرضة لأقل مرض يهاجمه من داخله أو خارجه وهنا يعلن الفيروس انتصاره النهائي ويرفع رايته السوداء معلنا: "أنا الموت".

مـــا أن انتهت "ندى" من قراءة هــذه المعلومات حتى تلاحقت أنفاسها واعتراها الخوف -لا تدري لماذا؟- فأطفأت الحاسب الآلي ورآت أن تلوذ بالحياة - مبتعدة عن ســيرة الموت - فاســتحضرت درس "الأحياء" أيام المدرســة والذي يتحــدث عن تكون الحياة.. تذكرت حصة "البيولوجي" و"مس أفروديت" مدرسة الأحياء والتي كانت تسمح بالأسئلة القلقة المختبئة في صدور البنات المراهقات.. كان الــدرس المفضل لديهنّ عن رحلـــة الحيوان المنوي في الذكر نحو البويضة المنتظرة في الأنثى.

"انتبهنا ونبتت لنا آذان إضافية ورحنا نبعد خصل الشعر وننصت وقد انتبهت فينا كل الأعضاء"

قالت "مس أفروديت" والتي رغم جمالها ورغم أنها في الثلاثين إلا أنها غير متزوجة "يقذف الذكر بالسائل المنوي في مهبل الأنثى تسبح فيه ملايين الحيوانات المنوية الدقيقة تتسابق وهى تعوم وتجاهد آخذة طريقها - صعودا - إلى البويضة الصغيرة جدا والتي تنتظر"..

وهنا -رحنا نحن البنات- نتنهد ونضم الأكف احتراما للعروسين.

تسأل إحدانا:

"هل هما على موعد يا مس؟"

فترد أخرى: "طبعا فهى تحلم به منذ شهر"

وتترنم أخرى بأغنية عبد الحليم حافظ "بحلم بيك أنا بحلم بيك"

تخبط "مس أفروديت" على التختة القريبة تدعونا إلى الصمت فنصمت وتكمل هي: "الرحلة شاقة أمام الحيوان المنوي فدعوه يجاهد فالسائل الذي يعوم فيه يبدو بالنسبة له كمحيط هائل بينما هو سمكة صغيرة تعوم مستعينة بذيلها فهو له رأس وذيل يساعده إلى أن يصل إلى البويضة فيدخل فيها"

"بكامله يا مس"؟

تسأل إحدى البنات وهي تكاد تفقد صوتها خجلا فتجيب المس بجدية شديدة:

"لا.. رأسه فقط"

"والباقي؟" "الباقي أين ذهب؟" تهلل البنات

ترد المس: "يتخلى عنه ما أن يدخل إلى البويضة وفي العادة يدخل في البويضة الواحدة حيوان منوي واحد لا تسمح البويضة لغيره بالدخول ثم تنغلق عليه".

تعلق بنت: "مخلصة"

تواصل مس أفروديت "وأحيانا يدخل اثنان"

تعلق البنت ذاتها "خيانة"

تكمل المس: "وفي النادر ثلاثة أو أربعة"

تصيح البنت: دعارة

تضحك البنات وتشاركهن المس الضحك

"أنا اتكلم عن الحيوان المنوي يا بنات لا عن الرجل"

تتنهد البنات "وهل هناك فرق!"

تتجرأ بنت وتسأل:

ولماذا يتخلى عن ذيله الطويل؟

ترد المس: "كان يستخدمه فقط أثناء العوم"

تهمس زميلتها في أذن ندى: "تقصد أثناء النوم؟"

تكمل المس: "وما أن يدخل الحيوان -الذي هو خلية واحدة- حتى يتصلب الغشاء الخارجي للبويضة والتي هى خلية واحدة أيضا ويبدأ الاندماج"

تعلو شهقات البنات يصحن "الاندماج الاندماج.. النُخلة" ويصفقن

تشجيعًا فتصيح مس أفروديت كأنها تشعلهن أكثر:

"ومهما حاولت الحيوانات الأخرى الدخول وهى تدق على جدار الخلية فإنها لا تفتح لهم إذ هما منهمكان في عملية الاندماج والانقسام"

تقف البنات ويعلو الصياح والتصفيق متخذا شكل تحية واجبة لهذا الحدث الجلل.. وتبكي بعضهن انفعالًا ثم يسود الصمت للحظات كأنما لتعطي فرصة لتكوين الجنين إلى أن تفيق إحدى البنات وتسأل المس من بين دموعها:

وهل يؤثر الختان في هذه العملية يا مس؟

ترد المس "طبعا فهو يتسبب في البرود الجنسي

فوجئت ندى بإحداهن تقف وتقول:

"لنسأل ندى فـ"باباها" طبيب"

وعلى الفور تتجه عيون الفصل كله نحو ندى التي تقف وتعلن:

"أنا لست مختونة" وعلى الفور تستعيد يوم أنقذها الدكتور يسري فقد فوجئت بعم عبده البواب وهي في الثالثة أو الرابعة من عمرها يدخل القصر مصطحبا معه عجوزًا تحمل على رأسها قفة ويتدلى من أذنيها قرطان كبيران على شكل مخرطة الملوخية أو شرشرة الحصاد بينما أبوها وأمها يرحبان بها.. كانت هذه

المرأة هى الغجرية التي استدعاها الأب لتختنها! ما أن أخبرتها أمها بما سيحدث لها وهى تعطيها الحلوى وتجهزها حتى هربت منها وراحت تصرخ إلى أن سمعها الدكتور يسري وسأل ولم يكن يعرف أن حامد الجنايني له ابنة أصلا فقد كان أبوها يخفيها خجلا منها.. وعرف الدكتور بأمر الغجرية فعلا صوته يسب "عم عبده" الذي سمح لها بالدخول وينعت أبوها بالجهل إذ كيف لم يأخذ رأيه وهو طبيب بينما كانت تسمع صوت زوجته رشيدة - تقف على سلم القصر تطلب من زوجها ألا يتدخل في هذه المسائل الأنثوية فهى "طهارة للبنت" وعاد الدكتور يسري يهدد الأب بالإبلاغ عنه إذ أن "ختان الإناث مجرّم قانونا" ثم أصدر الدكتور أوامره لعم عبده البواب بطرد الغجرية وبعدم دخول أي إمرأة غريبة إلى القصر أو خروج ندى منه وإلا اعتبر متواطئًا على جريمة.. لم يقتنع "عم عبده" ولوى بوزه إلا أن الخوف على أكل عيشه ألزمه الصمت

كنت أحب "مس أفروديت" وأحب حصتها وأحب مرحها.. وحدها صديقتي "مريم" التي كانت تنسحب من حصص مس "أفروديت" إلى خارج الفصل حتى وصل الأمر بها في الحصة الأخيرة ما أن بدأ الحيوان المنوي يأخذ طريقه إلى البويضة ونحن نهلل حتى فوجئنا بها وهى تسرع مغادرة الفصل ثم سمعنا صوت تقيؤها في الخارج.

***

حين غادرت ندى حجرة المذاكرة - حيث الحاسب الآلي - وهي تتجه إلى حجرة الدكتور يسري كان وعيها بالحياة والموت قد استنار.. فقد قارنت بين الفيروس كحامل للموت -أو كالموت نفسه- وبين الحيوان المنوي كحامل للحياة -أو كحامل الحياة نفسها- كلاهما يسعى إلى الخلية ويدخلها.. لكن الأول تقوده الكراهية بينما الآخر يقوده الحب.. الأول يسعى للهدم والثاني يسعى للبناء.. وجدت ندى الدكتور ساهرا.. كانت نظرتها إليه قد تغيرت إذ رأت أن ما يقوم به كعمل ضد طغيان هذا القاتل المحترف هو عمل جليل فاقتربت تجلس بجواره وقبلت رأسه وخرجت وعادت وقد أحضرت له طبقا من الفاكهة سألها إن كانت الدوخة قد عاودتها فهزت رأسها وابتسمت وسألته إن كانت التجربة مع فرحان قد اكتملتَ فرد عليها متسائلا: "وهل كان نجاحك في المدرسة ينتهي بمجرد أدائك الإمتحان أم بعد ظهور النتيجة؟" سيرى في الصباح حين ينزل إلى القبو:

قالت: "سأسلّيك حتى الصباح كما كانت شهر زاد تفعل مع شهر يار ونهضت وعادت تحمل كتابا عن الحبّ وجلست أمامه بعد أن أدارت موسيقى "الناي السحري" لموزار وفتحت الكتاب تقرأ

"إلى كل من آمن بأن الحب أثمن شئ في الوجود!

إلى كل من أدرك أن الحب هو القيمة الكبرى..

إلى كل من علمته التجربة البشرية كيف يعيش

ليحب، وكيف يحب ليعيش

إلى كل من عرف أن حبه للآخر هو الذي

ينبئه بما هو.. ويخبره بما هو

فيعلن قائلا "إذن أنا موجود"

"أقول لك كيف خلق الإنسان من طين"

هكذا تكلم إمام العاشقين القطب الصوفي جلال الدين الرومي

ذلك أن اللـه - جل جلاله - نفخ في الطين أنفاس الحب

"سأقول لك لماذا تمضي السموات في حركاتها الدائرية

ذلك أن عرش اللـه يملؤها بانعكاسات الحب"

"سأقول لك لماذا تهب رياح الصباح

ذلك لأنها تريد أن تعبث بالأوراق النائمة على شجيرات الحب"

"سأقول لك لماذا يتشح الليل بغلائله

ذلك أنه يدعو الناس إلى الصلاة في مخدع الحب"

"إني أستطيع أن أفسر لك كل ألغاز الخليقة

فما التفسير الأوحد لكل الألغاز سوى الحب"

شرد الدكتور يسري الراوي قليلا وعاد يقول لندى: أنا أحترم الصوفيين وأجلّهم

قالت: "وهذه رؤية شاعر اسمه أوستروفسكي لا أعرف جنسيته.
قال: جنسيته "شاعر" قرأت، بصوت كأنما مسّ الربيع أوتاره:

"قالت قطعة الجليد - وقد مسها أول شعاع من أشعة الشمس في مستهل الربيع- أنا أحب وأنا أذوب.. وليس في الإمكان أن أحب وأن أوجد في الحال نفسه.. فإنه لابد من الاختيار بين أمرين: وجود بدون حب وهذا هو الشتاء القارس أو وجود مع الحب وذلك هو الربيع الدائم".

علق يسري: "وأنا في حالة ذوبان دائم.. ثم أغلق عينيه ونام.
ظلت ندى ساهرة.. يسيطر عليها هاجس أن ينزل يسري إلى القبو في الصباح فيجد عايش قد مات ولحظتها قد يفقد صوابه أو -لا قدر له- تفقده.. وهكذا احتلت رأسها فكرة أن تقوم بتهريب عايش إنقاذاً له وللرجل الذي تحبه.

في حديقـــة القصر -قبل الفجر- كان الليـــل مايزال يتجول بين الأشجار والأزهار وكانت الرياح نشطة تتحرك صاعدة إلى أعالي الأشجار تنتزع منها الأوراق نصف حية نصف ميتة - تكنسها أمامها على الأرض. صحا روبي فزعا على صوت الأوراق تنقر على باب

كوخه فتوهم أنها أرجل الفئران فخرج يطل لكنه لم يجد في الخارج إلا الريح والظلام إذ لم يكن قد اكتسب بعد خبرة الفصل الكامل بين الأشياء فرغم حاســـة الشم فمازال يطارد الظلال على أنها كائنات حيةَ.. بينما كان عايش في القبو يفترش الأرض الإسمنتية متكوما في وضع الجنين وكانت الرعشة في جسده قد خَفت لكن النوم استحال إذ كيف ينام وصوت "شـــروق" يأتيـــه في صوت الريح داخلا إليه من خلال شقوق الباب.. أرهف السمع فتداخل في الأصوات صوت أمه التي لم يرها مع صوت شروق وامتزج الصوتان ثم تشكلا يدا واحدة اخترقت سقف القبو وامتدت إليه تمسح أحزانه.. قالت له اليد الحانية: "لماذا ترتعش؟"

"بردان"

"تغطَّ"

وامتدت اليد إلى بطانية بجواره فغطته وامتدت شفاهه إلى اليد تقبلها فاستحالت نورا هاربا في الظلام.. انتفض عايش واقفا يتلفت حوله ثم عوى فتحول صوت الريح نواحا.. عاد جسده يرتعش وعيناه ترتعشان.. مد يده يبحث عن النور فأضاء المكان بذلك الوجه المشرق في الرداء الأبيض والعمامة الخضراء يقف أمامه:

- "مالك يا ولدي؟"

- "موجوع"

اقترب الطيف يربت على كتفه:

أين مكان العلة. في الجسم أم في القلب؟

"في الروح"

مد إليه الرجل يديه بتمرتين:

"خذ.. اكسر صومك"

"لست صائما يا سيدي"

ظلت اليدان الكريمتان ممتدتين بالتمر: "خذها زادا للطريق"

قال عايش: "أي طريق إني سجين"

عاد الرجل يكرر: خذها للطريق وعاد عايش يسأل: أي طريق يا سيدي؟

قال الشيخ: "الرحلة طويلة وأنت لم تقطع سوى القليل فأكمل المشوار يا عريان"

قال عايش: كيف عرفت اسمي؟

قال الطيف: أعرفك منذ ولدت عريانا وعشـــت الدنيا فرحانا ثم بلوتها أحزانا ولكنك ستخرج إلى النور رضا من اللـه ورضوانا"

ادرك عايش انه امام وليّ أو ملاك فركع عند قدميه

"معاذ اللـه يا ولدي.. إنما أنا عبد مسافر.. مررت بهذا القصر وسمعت أنينك فأحببت أن أفعل خيرا"

قال عايش: "أعطوني يا سيدي دواء لم أطلبه وأخبروني أنه سيشفيني فهل أجد في هاتين التمرتين الدواء الشافي؟

قال الطيف: "لا.. إنما هما طعام للجسم.. لكنني سأدلك على النعمة الكبرى التي لا ينالها إلا الأصفياء"

قال عايش يضرع إليه: "أغثني ما هي؟"

قال الطيف: "نعمة النسيان"

قال عايش: لا أريد أن أنساها"

قال الطيف: كان حبك لها خطوة على الطريق.. مجرد نور هادٍ تتذوقه حتى تشتاق للنور الأعلى"

بكى عايش وعلا صوت بكائه

قال الشيخ: "هذا أول الطريق.. البكاء".. وكما ظهر غاب.

ظل عايش مادا يده حيث كان الزائر حتى فوجئ بباب القبو يفتح وصوت يهمس: "جئت أدلك على الطريق".. وقف عايش صامتا يتحقق مما يرى وقد اختلط عليه الأمر بينما ندى تقترب منه فاستسلم لها وهي تفك وثاقه وتحرر يده وساقه لا يتيقن إن كانت حقيقة أم طيفا

لكن ها هو قد تحرر من قيده يخطو وراءها تخرج به إلى الحديقة تقوده إلى السور الخلفي تطلب منه أن يعتليه ويقفز.. كان الزجاج غير المشطوف يبرز كالحراب أعلى السور.. لكن "عايش" أمكنه أن يصعد غير مبال بالدم نافرًا من يديه وقدميه وأن يقفز خارج القصر... وما أن فعل حتى أحست ندى أنها تخلصت من مخاوفها بينما كان "عايش" يحس وهو يعبر السور إلى العالم الخارجي أنه يعبر الحدّ الفاصل بين عالم الظلام وعالم النور.

***

مع أول خيوط الفجر.. صحت العصافير في حديقة القصر محدثة جلبة.. أيقظها الجوع القاتل إذ هى تنام عميقا حتى لا تموت أثناء النوم وصحا معها الدكتور يسري في داخله جوع أشد لا إلى الطعام ولكن إلى المعرفة.. يريد أن يعرف ماذا حدث لفرحان في معركة الليل الطويل هل حسم الصراع داخله أم ماتزال الحرب دائرة.. لم يذهب إلى الحمام كعادته ليأخذ "الدش" البارد المنعش بل اتجه مباشرة إلى المطبخ وتناول ملعقة كبيرة من عسل النحل ثم عبر الكوريدور متجها إلى السلالم آخذا طريقه إلى القبو.. لم يحس بلسعة البرد المبكرة التي واجهته ولا تذكر أن يحبك ملابسه على صدره اتقاءا لأي إصابة بل خطا نحو باب القبو مباشرة ثم توقف وتردد في الدخول وأخذ ينصت وضع أذنه على الباب وأرهف السمع فلم يسمع شيئا.. هاجمته الوساوس.. لكنه رفض أي احتمال لموت فرحان.. أزاح الفكرة عن رأسه وعن صدره كما لو كان يدفع جدارا ثقيلا يهم أن يقع عليه واستأنس إمكانية أن يكون فرحان نائما بعد أن يكون الصراع قد استقر داخله واطمأنت الحياة فيه. ومع ذلك لم يفتح القبو ليتأكد بل تحرك بطيئا وجلس أمام حمام السباحة.. كانت العصافير قد التقطت ما وجدته من بذور على الأرض ثم طارت عائدة إلى

الشجر بينما تدحرجت أوراق الشجر الصفراء الميتة تغطي سطح الماء أمامه.. نهض وأخذ يتمشى في المكان مفتقدا "ندى" هل يصعد ويوقظها ليطمئن عليها ثم يعود ليطمئن على مصير فرحان.

توقف عن المشي يتردد في فتح باب القبو متسائلا كيف وهو الجراح الذي طالما فتح جماجم البشر ودخل إليها غير هياب؟

تقدم بخطوات جريئة نحو باب القبو.. فتحه وهمّ أن يدخل لكن قدميه تصلبتا بعد أن أجال بصره غير مصدق فلم يكن هناك أحد بالمكان.. تقدم يتفحص كل أرجاء القبو.. ذهب إلى الحمام الملحق ونظر لا أحد.. اتجه إلى البرميل القديم وحدق. لا أحد. أخذ ينادي "فرحان.. فرحان" لا رد.. أحس بدوار.. كيف خرج؟ كيف هرب؟ ومن فك وثاقه؟ ومن فتح له؟ لم تعد ساقاه تتحملان.. فجلس على أرضية القبو واستحال عقله إلى صفحة بيضاء ليس بها أي نقوش وظل هكذا إلى أن دخلت عليه ندى يخبرها في ذهول: "هرب" جلست على أصابع قدميها أمامه: "الحمد لله أنه حي.. لم يمت".

صرخ فيها وهو يقف: "لا يكفي" لابد أن يرى ويشاهد ويفحص ثم اسرع خارجا من القبو تتبعه ندى.. كان جسده كله ينتفض وهو يعبر الحديقة كلها إلى أن وصل إلى الباب الحديدي للقصر وسحب "عم عبده" من جلبابه يتهمه مباشرة بتهريب فرحان. نظر إليه الرجل العجوز لا يفهم شيئا فقد سحبه وهو مايزال في النوم.. كان

قد صلى الفجر وعاد يواصل النوم ولما تأكد له أن الدكتور يصرخ فيه قال وهو يطرد النوم "نعم أنا ساعدته على الهروب".

ذهلت "ندى" التي سمعت ما قاله "عم عبده" أكثر مما ذهل الدكتور نفسه! إذ لم يكن مفهوما لها كيف يعترف هذا الرجل على نفسه بما لم يفعل؟! ولهذا انبرت تدافع عنه على أساس أنه قد يكون نائما لكن الرجل رد عليها بنوع من اللامبالاة: "نائم أو يقظ لا يهم.. فالحياة لا تتوقف كثيرا لتسأل" ثم مد يديه إلى الدكتور طالبا منه أن يسلمه للشرطة.. لم يهتم الدكتور بما قاله الرجل فما يعنيه هو فرحان.. أين ذهب؟ فاجأه الرجل وقد تجرأ بالسؤال.. "ولماذا كنت تحتفظ به؟ رد عليه الدكتور كأنما يصفعه" "وما دخلك أنت!"

"لا أريد أن أعيش جاهلا وأموت جاهلا"

قال الدكتور بحدة: "كان مريضًا وكنت أعالجه"

ثم عاد يشد جلباب العجوز ويهدده بالإبلاغ عنه كلص.. لم يحس "عبده" بأي خوف إذ لم يكن يعرف أصلا لماذا أتى الدكتور بهذا الرجل بالتحديد مقيدا داخل حقيبة السيارة ولا من أين أتى به ولا لماذا طلب منه الدكتور أن يعد له القبو مع السائق كمسكن ولا لماذا استمر في حبسه.. لم يخبره السائق شيئا ولا حاول هو أن يلح بالسؤال فقد اكتفى - منذ جاء إلى القصر - بأن يقضي حياته يحرس الباب لا أكثر ولا أقل وحرص ألا يتحرك هنا أو هناك إذ هو هارب

منذ سنين من ثأر قديم متوارث ولائذ بهذا المكان لا يبرحه فحياته رهن رصاصة من مجهول. لذلك حين يهدده الدكتور الآن بالإبلاغ عنه كلص يكون قد أوجد له حلا يخلصه من خوفه الدائم من القتل ففي السجن سيجد كل ما يجده هنا.. الأكل والشرب والنوم علاوة على الأمان.

زعق الدكتور: "أنا أعالجه من الموت.. فلماذا تركته يهرب؟"

رد عليه الرجل بهدوء: "الموت يا سيدي ليس هو الموت نفسه وإنما هو انتظاره" وعاد العجوز يطالب بسجنه فاندفعت ندى تخبر يسري أنها هى التي قامت بتهريبب فرحان وصحبته إلى سور الحديقة حيث اعتلاه عايش وقفز وأشارت للدكتور إلى آثار دمه.. وما أن رأى الدكتور الدم حتى ردت فيه الروح.. لم يفكر في عتابها بعد أن أخبرته أنها فعلت ذلك خوفا عليه اعتبر ذلك عائدا إلى قلة خبرتها في الحياة. ما يهمه هو هذا الدم فأسرع يحضر "جفنة" التقط فيها بقعة منه وضعها في أنبوبة وغير ملابسه وأسرع إلى المعمل المتخصص الكبير مغادرا القصر. سألته "ندى" إلى أين؟ فلم يرد فعادت تلاحقه.. إلى أين؟ فصاح بلهجة قاطعة: "إلى الميدان"

لجأ "عايش العريان - إلى مكتب عابد المحامي صبيحة أن غادر القبو.. يخبره أنه زهد الدنيا بكل من فيها وما فيها وأنه يريد أن يتجرد من كل أعبائها.. وعلى الفور انتبه عابد المتيّم بقوة.. وتحركت فيه قرون الاستشعار للمال. فأخذ يغذي مشاعر عايش يستحضر كل ما يشجعه على الزهد لم يترك شيئًا من المأثورات الشعبية صادقة وكاذبة إلا وقالها وكان كاذبًا في كل ما قال.. بينما كان "عايش العريان" وهو يجلس أمامه صامتًا قد زهد الدنيا بالفعل ومستعدا بالتبرع بكل مالديه لليتامى والمساكين تكفيرًا عن ذنوب ارتكبها في مسيرته الحياتية وسعيًا إلى الرضا طلب له عابد كوب ينسون واستكتبه أثناء شربه عددًا من الأوراق وقع علهيا عايش وهو في حالة الغياب ثم خرج من عنده يبحث عن الخلاص بعيدًا عن المدينة الكافرة والتي لم يكن يرغب أصلا في اقتحامها.. مكتفيا بحياة العزلة داخل برميل.

أخذ الدكتور طريقه إلى حي المقطم وكان قد توجه بالعينة من

دم فرحان الذي التقطه من على سور الحديقة إلى معمل التحليل الذي يضمنه والذي يضمن ألا يعطله.. فحص العينة وحللها ورأى واستنتج واطمأن.. كانت العينة دالة على أن الحرب كانت متكافئة بين الفريقين داخل عايش: الحياة والموت ولكن أيهما سينتصر؟.. حدد يسري لسائق التاكسي مكان الفيلا التي سينزل أمامها ونزل لكنه لم يجد الفيلا.. اختفت ولم يعد مكانها سوى الهواء تملؤه حركة العمال ينقلون الأتربة والطوب ويخلون المكان لبناء جديد.

***

لنهارين وليلتين من أيام اللـه أطل فيهما الشمس والقمر وغابا ظل "عايش العريان" ساجدًا على الرمال في الصحراء يبكي ويستغفر.. لم يسمعه أحد ولم يعرف أحد ماذا قال.. فقد كان يكلم اللـه وحده بالصوت الخاشع والقلب الضارع وهو صائم لم يأكل ولم يشرب ولم يرفع رأسه أبدًا طوال هاتين الليلتين.. الوحيد الذي كان يعرف مكانه هو "شيخه" الطيب الذي أرشده إلى هذا المكان والذي على يديه أخذ العهد وتبع الطريقة والطريق.

لم يحس "عايش" بشيخه وقد وقف أمامه يريد أن ينبهه لوجوده.. مسه الشيخ ظنًا أنه مات وتجمد على وضعه الساجد هذا إذ لم تكن تصدر عنه أي حركة أو حتى هسيس أنفاس.. لم يتحرك عايش ولا يبدو أنه أحس بكف الشيخ حين مسته.. عاد الشيخ يناديه باسمه

فلم يرد فأدرك - وهو الشيخ الصوفي العارف - أن عايش العريان مستغرق في حالة الوجد.. لا يعبأ بالزمن الخارجي الذي يمر به فما أحس بغروب الشمس ولا بدخول الليل ولا بالبرد الذي كسا غلاف الصحراء.. وعاد ينادي على عايش فانتبه ورفع رأسه يتلفت حوله وأمامه كأنما هو عائد من رحلة طويلة يريد أن يتبين موضعه.. لم ير شيخه أول الأمر.. ولم يحس بالجوع والعطش والهزال ولا بالزمن الذي لبث فيه ساجدًا. هل هو لحظة.. يوم.. عام.. مائة عام.. فقد كان ممتلئًا ومكتفيًا حين السجود وما أن أحس بالدنيا حوله حتى عاوده البكاء.. أخذ ينهنه كما لو كان قد طرد لتوه من الجنة

"قم يا شيخ عايش"

وحدق فيه شيخه فرأى النور يضيء وجهه فصاح مكبرًا "هذا هو النور الذي أخبرنا به المولى جل جلاله في قوله: **"سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ"** هذا هو الأثر المضيء من صدق السجود.. وهذا هو الذي جهدت أن أسعى إليه لأحوزه اجتهادًا مني ورضا من اللـه" وانحنى يبوس طرف رداء عايش.. ومن يومها لم يفترقا.. ومن يومها أصبح عايش هو "الشيخ" والشيخ هو المريد.

***

أمام الفيلا التي هدمت وقف يسري قريبًا من الرجل الذي يلاحظ العمال ظنه الدكتور مقاول الهدد يجلس على كرسي خيزران قديم..

حين اقترب منه وأطل في وجهه تعرف عليه لتوه فلم يكن إلا جاره تاجر القصب مالك البرج الذي حجب عنه الشمس.. وقف الرجل يرحب بالدكتور ولما لمح الدهشة في وجهه أخبره أنه اشترى الفيلا وهدمها كي يبني مكانها برجًا.. سأله الدكتور متى وكيف وأين صاحبها؟ دعاه الرجل للجلوس فاعتذر.. هو يريد أن يعرف أين ذهب عايش العريان؟ قال الرجل: "اللـه جاب.. اللـه أخد.. اللـه عليه العوض" وشرح له:

"كان عايش العريان متسولا يعيش في برميل إلى أن رآه رجل هو في حقيقته جني من تحت الأرض.. لبسه ثم تولى رعايته وسهل له الأمور حتى أوصله إلى الثراء فبني هذه الفيلا وسكن معه فيها متخذا هيئة ديك وأصبحا أصدقاء عايش العريان والديك.. إلى أن وقع عايش في حب امرأة وأحضرها إلى الفيلا ورآها الديك فعشقها وأصبح ينام معها سرا كل ليلة يرفرف عليها بأجنحته وهي تتلوى تحته وتصيح إلى أن سمعها عايش ذات ليلة واكتشف الخيانة فحاول ذبح الديك لكن الديك استخدم قوته الجهنمية وطار. نعم طار ورآه الناس وهو يطير ويختفي أما هي فيقولون إن قبيلة الديك جاءوا إليها لابسين الكمامات متخذين هيئة رجال الصحة وأخذوها إلى عالمهم تحت الأرض"

أطرق الدكتور للحظات كأنه ينصت ويصدق ثم عاد يسأل الرجل:

ولكن أين ذهب عايش؟ قال الرجل: هجر الفيلا وتشاءم منها بعد أن أصبح يسمع فيها صوت الديك طوال الليل يتوعده بالهلاك وذهب إلى صديقه المحامي "عابد المتيم" يأخذ رأيه فاستكتبه المحامي توكيلا عاما ببيعها - حيث أصبحت ملعونة - على أن يتبرع بثمنها لوجه اللـه وقد باعها لي الأستاذ عابد فقررت هدمها تشاؤما منها على أن أقيم مكانها برجا سكنيًا أجعل تحته مسجدًا لوجه اللـه"

أخذ الدكتور يسأله عن مكان عايش العريان الآن لكن تاجر القصب تحول إلى العمال يحثهم على العمل منشغلًا عن الدكتور الذي يسأله بنفاد صبر أين يجد عايش العريان" رد عليه الرجل بجفاف وهو يعود للجلوس على كرسيه: "بعضهم يقول إنه تحول ديكًا يبحث عن امرأته.. وبعضهم "يقول إنه توفي" ثم استدار يسأل الدكتور إن كان يفكر في بيع القصر؟"

تركه الدكتور وسار متوغلًا بين مساكن جبل المقطم محددا هدفه متجهًا إلى الشيخ مصباح يسأله عنه حتى وصل إلى ظهير الجبل آخذا طريقه إلى عين الصيرة.. وبالتحديد إلى مقابر عين الصيرة فقد أخبره عايش العريان حين حكى له أنه ذهب إلى أبيه الشيخ مصباح هناك فتوقع الدكتور أن يكون فرحان قد لجأ إليه وكان قد اشترى راديو صغيرا يسليه في الطريق.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل لا يحس به الدكتور الراوي

ولا يعنيه.. أن كل ما كان يفكر فيه هو الوصول إلى عايش كي يعرف نتيجة المعركة.

الدخول إلى المقابر ليلًا مخيف.. رغم تناثر بعض البيوت الهزيلة حولها لكن ساكنيها نيام.. ما تحت الأرض أيضًا نيام.. المكان كله نائم فالليل والصمت يخبران بأن الزمن هنا راكد. لا شيء هنا حي سوى تلك الرياح الخفيفة اللاسعة تتبعه بينما هو يتوغل داخلا.. تتحرك الأرض تحت قدميه مثيرة نوعا هامدا من التراب كأنه أنفاس قديمة عبرها الزمن.. شعر فجأة بلمسة هواء غريبة تمس وجهه.. خاف.. فلم يسمع صوتا ولا رأى شيئا فالعتمة مسيطرة.. أدرك أنه حفيف جناحي بومة.. فهي وحدها التي تعيش في تلك الأماكن القفر وهي التي لا يسمع لجناحيها صوت إذ أن ريشها من النعومة بحيث تفاجئ الفريسة انقضاضًا لا تحس ولا تفلت منها أبدًا تماما كالموت وهي القادرة على الرؤية في الظلام مائة ضعف الإنسان.. هي إذن تراه ولا يراها تعترض على اقتحامه مملكتها..

تأكد له وهو يواصل السير في العتمة أنها البومة كما خمن إذ أطلقت صوتها الصيّاح ورحلت.. تعثرت قدمه في شئ ما.. فأضاء الموبايل من فوره كي يرى.. كان رجلا مقعدا نصف ميت نصف حي فقد كان فاقدا ساقيه وذراعا من ذراعيه وعينا وأذنا.. بادره الرجل: "ألا تعرفني؟ كنت أشهر نشال في مصر.. أسرع من ينط في

الترام وهو في أقصى سرعة ويقفز منه وهو طائر واسأل العجائز في شبرا عن عبد الفتاح الموس.. الآن أنا مستقر هنا وسعيد أنهى كلامه ثم رفع زجاجة كحول جواره وأخذ جرعة.

"كانت الكلاب تعيش هنا فيما قبل لكن حفار القبور قضى عليها كلها.. أعدمها بالسم اعتقادًا أنها شياطين خاصة الكلاب السوداء ولأنه كفيف فلم يكن يفرق بينها اعتبرها كلها سوداء" واستمر نصف الرجل يضحك حتى شرق وكاد يموت.

سـألـه الدكتور عن اسـم حفار القبور هذا أجابه النشال السابق: الشيخ مصباح.

تركه الدكتور وأسرع يواصل صعود التل قاصدا ضوءًا ضعيفًا ينبعث من فانوس زيتي خمن أنه مكان الشيخ مصباح ووصل إليه

كان مصباح منهمكا في حفر قبر جديد.. خالعا جلبابه عرقانا -رغم البرد- تفوح من جواره رائحة كحول تنبعث من زجاجة مفتوحة.. كان يهم بأخذ جرعة منها فتركه حتى أدفأ نفسه.. وعاد يندمج في الحفر

إلى حد أنه لم يحس به.. أقرأه الدكتور السلام فتوقف المعول في يد الرجل واقترب يتحسس هذا الكائن الواقف بقربه لا يراه.. ابتعد عنه الدكتور يسري متراجعًا خطوة وبادره: "لمن هذا القبر"

رد الشيخ مصباح من فوره وقد تأكد أنه إنسي: "للمحظوظ صاحب النصيب".

وللحظة رأى فيه الدكتور تجسيدًا للموت ذاته فاعتبره عدوه واقترب يسأله عن عايش ابنه.. توقف الرجل عن الحفر مواجهًا الدكتور وصاح بحدة: "هو ابن زنا"

أخبره الدكتور أنه مهدد بالموت وأنه يحاول إنقاذه.. توقف الحفاريحدق في لا شيء: "ولماذا تنقذه؟ ما عملك؟"

"طبيب"

"أنا أكره الحكما.. "لماذا تقفون ضد الموت؟ وهو رزق لأمثالي.. رزق دائم لا ينقطع

عاد الدكتور يسأله:

أين ذهب عايش؟

- اسمع يا حكيم ساحكي لك حكاية سمعتها وأنا طفل في القرية من شيخ الكتّاب الذي ورثت مكانه وأخذ يحكي دون أن يتوقف عن الحفر "قضى رجل ثلاثين عامًا في السجن وحيدًا لا يزوره سوى سرب من النمل يدخل من تحت عقب الباب داخلًا في طابور طويل وقرر هذا السجين أن يشغل وقته وأن يفعل بعمره شيئًا فأخذ يعلم النمل ويدربه كيف يسير في دائرة بدلا من السير في طابور..

ثلاثون عاما يدربه ليغير النظام الذي خلقه اللـه عليه.. وحين خرج من السجن حمل النمل داخل علبة وقصد مطعما ليأكل ولما لم يكن معه نقود راى أن يستعرض هذا النمل المدرب أمام صاحب المطعم بديلا عن ثمن الطعام فأخرج النمل من العلبة وأسرع يضعه على المنضدة مكونا به دائرة محكمة وما أن أتى الجرسون ورأى النمل حتى أسرع معتذرًا عن عدم تنظيف المائدة وبضربه واحدة من كفه قضى على السرب جميعًا" هل فهمت أيها الحكيم

صمت الدكتور فأخذ الحفار يفك له الرموز:

" السجن هو الدنيا.. والسجين هو البني آدم الذي يريد أن يغير نظام الكون واليد التي بطشت بالنمل هي يد القدر" زعق الدكتور: وهذه يدي أنا" موجها يده كسيف قاطع تضرب عنق الرجل لتوقف الكلام في حلقه والنفس في صدره والحركة في جسده ثم دحرجه إلى القبر الذي حفره وردم عليه وسار.

***

الضباب أمامه كثيف. تعثرت قدمه في صخرة كبيرة فجلس يلتقط انفاسه.. أحس أنه يسير على جسر ضيق جدا تحته هاوية.. إما أن يعبره أو يهوي إلى القرار السحقيق.. فتح الراديو الصغير هاربا من أفكاره فجاءه صوت عبد الوهاب من محطة بعيدة ساهرة.. كان الصوت متذبذبا كأن هناك من يطارده وكان عبد الوهاب يتغنى

بـ"كليوباترا" وقد بعثت حية كما يتخيل الشاعر.. قال لنفسه يا لها من ملكة ذات كبرياء.. اختارت الموت كرهًا رفضًا للموت ذلًا بعد أن ذاقت حلاوة الحياة عشقًا. وأغمض عينيه يستمع إلى كلمات الأغنية:

"كان في الليل سكارى وأفاقوا قبلنا.. ليتهم قد عرفوا الحب فباتوا مثلنا"

ثم حول مؤشر الراديو فجاءه صوت عبد الحليم حافظ في أغنية "ربما"

"أسعيد كنت في الحب أنا.. ربما

أم شقيّ في ضلالات المنى.. ربما"

وحول مؤشر الراديو فجاءه صوت نجاة مع أول شعاعات الشمس:

"احلم ويايا

العالم كله بأسراره عايش جوايا

طول ما انت في الرحلة معايا"

نهض واقفا.. نشطا يواصل السير مستأنسا بالصوت الدافئ الكريم كحليب الصباح. أفطر واستراح على مقهى ثم عاود البحث حتى دخل

في ليل الأحد 12 نوفمبر 2016 فسمع صوتا نسائيا جميلا - ذكره بصوت ندى - يهمس من داخل الراديو "الليلة سكان الأرض على موعد مع القمر السوبر وهى ظاهرة لن تتكرر قبل ثلاثين عاما حيث أعلنت وكالة ناسا أن القمر سيكون في أقرب نقطة له من الأرض وسيظهر للعين المجردة أكبر حجما وأكثر إشراقا بنسبة 30 %" وعلى الفور رفع عينيه إلى السماء ينظر إلى القمر الجديد وظل شاخصا ببصره يتملاه مسحورا به لا يعنيه ضبط خطواته أو النظر إلى ما يقابله أو من يقابله فقد وجد أخيرًا صديقا للطريق.

ظل الدكتور يسير طوال سبعة عشر يوما في الليل والنهار يبحث عن عايش العريان.. وحين يجهده السير على قدميه كان يتجه إلى أقرب فندق أو لوكاندة - لا فرق - يقضي فيها الليل.. بات في لوكاندات العتبة والحسين وأحيانا على المقاهي يسأل ويحدد لمن يلقاه أوصاف عايش.. يأكل المتاح محافظا فقط على عسل النحل وصبغة الشعر والاستحمام.

***

كان الزهايمر في رأسه ينتهز الفرصة ليمارس عمله في إطفاء المصابيح بهدوء، وكان يسري يعي ذلك جيدا بصفته طبيبا ويحاول أن يختصر الزمن وأن يسابقه حتى لا يخسر كل شيء.. وما أن وعى الدكتور نفسه حتى غير اتجاه سيره وعاد يسأل في المناطق

المأهولة والمتطرفة إلى أن أخبره أحدهم من أتباع الطرق الصوفية أنه سمع عن هذا الاسم "عايش العريان" قطبا صوفيا له مريدون وله خلوة في الصحراء.. أي صحراء؟ لم يدلوه.. راح كل الأماكن المحتملة التي يعرف أن بها صحراوات.. راح إلى العباسية ومدينة نصر والمعادي فوجد الصحراوات قد احتلتها الفلل والأبراج إلى أن دلّه واحد أن يبحث في صحراء الفيوم.. سأله من أين يبدأ؟ أخبره أن يتوجه إلى منطقة الهرم ويسأل. ركب الميكروباص وما أن نزل في آخر منطقة الهرم حتى هاجمته مجموعة من الجلاليب يجذبونه إلى ركوب الأحصنة والجمال إذ هم يعانون البطالة نتيجة أزمة السياحة فأخبرهم أنه ليس سائحا ومع ذلك نزل وأرضاهم. ووقف يتأمل الهرم.. لقد خلّد الأجداد الموت بينما كانوا يسعون إلى خلود الحياة. حنطوا الجثث بينما أفلتت منهم الروح طائرة تخبّئ تحت جناحيها سر الخلود!

ركب إلى حدائق الأهرام على طريق الفيوم لا يعرف أين ينزل فهناك أسوار طويلة ممتدة بها عدة بوابات وراءها مدينة كبيرة حديثة الإنشاء.. دخل من إحدى البوابات وتاه بين آلاف البنايات وآلاف التكاتك. عاد يسأل عن الشيخ عايش العريان فأرشدوه إلى شاب اسمه "أحمد الفيومي" يقوم بتوصيل الزاد إليه في الصحراء. ووصل إلى أحمد فرحب به الشاب وركب معه التوك توك الذي يرفع في مقدمته لافتة ترفرف محفوظة داخل كيس نايلون شفاف هي شهادة التخرج.. بكالوريوس

الإعلام.. ضحك الدكتور يسري حين رآها فعلق أحمد بالإنجليزية.. "this is my flag?" وقاوله على ثمن التوصيل فأعطاه الدكتور أكثر مما طلب وهو يخبره أنه "مريد" يودّ التقرب إلى الشيخ. وفي الطريق أخذ الشاب يدردش مع "المريد" الجديد.. أخبره أنه يقوم بتوصيل التمر والماء إلى الشيخ ومريديه في الصحراء.. فهم لا يتناولون من الطعام إلا التمر ولا يشربون إلا الماء الطبيعي الطاهر وعلّق الدكتور إن التمر يحوي كل المواد الغذائية بدءًا من النشا والسكر وحتى الدهون علاوة على الحديد.. أخبره الشاب أن زادهم هذا تبرّع من رجل طيب زاهد - في التسعين - كان يعمل قبل إحالته للمعاش عضوا في مجلس الشعب بالدولة ثم تفرغ فيما بعد عضوا في مجلس إدارة تقسيم أراضي هذه المدينة - في بداية تكوينها - وهو الآن - ما شاء الله - يملك فيها سبعين عمارة. ثم نبهه الشاب أن يبرز بطاقته ما أن يلتقوا كمينا في الطريق فقد ظننت المخابرات أن عايش ومن معه مجموعة من الإرهابيين وظلت تراقبهم إلى أن اطمأنوا أنهم ليسوا خطرا على الأمن فتركوهم تحت المراقبة والتفتيش. ووصل الدكتور يسري.. كانوا مجموعة من الرجال داخل جلابيب بيضاء يجلسون على الرمل في دائرة يتوسطها عايش العريان مطرق الرأس مستغرقا في رؤاه فلم يحسوا بالدكتور حين اقترب منهم ثم اقترب ووقف يخاطب أكبرهم سنا والذي أخذ يتفحصه. سأله الدكتور بعد أن أقرأه السلام عن السيد عايش العريان.

نظر إليه الشيخ مستنكرًا ومصححًا:

"تقصد سـيدي العارف باللـه عايش العريان الذي اختبر الدنيا وجرّب وعانى وتاب وأنـاب وامتلك وفارق وأحب وفرح وحزن وسـعد وتعذب واسـتغفر وبكى وجاهد واشـتاق وتشوّق فعرف وواصل فوصل.. هذا هو وأنا شيخه الأول لكنه تجاوزني - برضا اللـه - ولكن من أنت؟

أبدى الدكتور دهشته فقد كان مع عايش منذ أيام قلائل فمتى حدث له كل هذا التغيير؟"

رد عليه الشيخ:

"وهل زمن الواصل كزمن التائه؟ الزمن يا هذا جلباب إما أن تلبسه أو يلبسك.. إما تتخذه سيدا يأمرك فتطيع وإما أن تتخذه خادمًا تأمره فينفذ.. وليس بين المحب والمحبوب زمن فما بالك إذا كان المحب خالصًا مخلصًا في حبه والمحبوب هو اللـه". وأخذ الشيخ يترنم بصوت طيب وجميل: "وللـه الأسرار الكبرى السبع: الزمان والمكان والسمع والبصر والفؤاد وله الحياة وله الموت والنشور"

وما أن انتهى من ترنيمته حتى عاد يسأل الدكتور "ما مقصدك وما مبتغاك؟"

أشار الدكتور إلى عايش العريان:

"اسمح لي أن اقترب منه.. سيعرفني حين يراني"

قال الشيخ: لن يعرفك فقد منّ اللـه عليه بالنعمة الكبرى: النسيان

"دعني أحاول.. دعني اقترب"

رد الشيخ: "تقرّب.. ولكن لا تقترب"

قال الدكتور: دعني أقدم لك نفسي.. قاطعه الشيخ بحدة:

"لا يعنينا أيا من كنت ملكا أو خفيرا فكلنا في هذه الدنيا شحاذون على باب اللـه.. ما يعني هو القلب.. هو تسبيح النبضات في الخفاء حيث لا يسمعها إلا اللـه"

أخذ الطبيب يطارد أذنه "أريد نقطة دم واحدة فهناك حرب تدور داخله الآن"

قال الشـــيخ بهدوء: "أعرف وقد انتصر فيها.. نصره اللـه على الشيطان"

"هناك معركة أخرى يا شيخي الطيب"

رد الشيخ كما لو كان يعلّمه: "الدنيا لا تحتمل سوى معركة واحدة داخل النفس"

حاول الدكتور يسري أن يخترق الصف ليصل إلى عايش:

"دعني أحصل على نقطة واحدة من دمه" وقف الشيخ يصدّه:

"أين هو الدم؟"

"في عروقه"

ضحك الشيخ كأنما ينبهه إلى جهله: "ليس في عروقه دم يا هذا.. ما في عروقه إلا النور"

أدرك الدكتور يسري أن المسافة بينهما تتسع أكثر فانحنى يقبل يد الشيخ فأبعد الرجل يده سريعًا

أخذ الطبيب يرجوه: "دعني ألمس ثوبه تقربا وبركة"

وأخيرًا سمح له الشيخ وما أن اقترب الدكتور من "فرحان" حتى أخرج من جيبه الحقنة ودسها خفية في لحمه تحت الجلباب وسحب قليلا من دمه وأسرع عائدا يتملكه إحساس من حصل على كنز ثمين.

*

ندى

تلقت ندى على الموبايل رسالة من صديقتها الحبيبة مريم تخبرها أنها ستدخل الدير بعد أعياد الميلاد "أريد ان اراك قبل أن اودع حياة الناس.. هل تأتين إلى باريس أم ارسل لك تذكرة" وقبل أن تفكر مريم بماذا ترد رأت أن تأخذ رأي الدكتور يسري أولًا، وهو غير موجود معها الآن، ولا يتصل بها، ولا يرد على مكالماتها.. وما هي إلا لحظات حتى تلقت الرسالة التالية من الدكتور يسري: "أصل القصر بعد ساعة.. حجزت مقعدين على الرحلة رقم 817 إلى باريس.. سنقضي أعياد الميلاد وأعياد رأس السنة الجديدة هناك".

لم تصدق "ندى" أيًا من الرسالتين قرأتهما عشرين مرة لتتأكد وراحت تغمر الموبايل بالقبلات.. تحتضنه وتقذفه إلى أعلى وتلتقطه وتعيد قذفه.. أيمكن أن يكون هذا واقعًا؟ حلمان يتحققان معًا؟ لقاء مريم الحبيبة ويسري المحبوب؟ لقد كانت تفكر في كل منهما في نفس الوقت وقبل لحظات! هل سمعا أفكارها؟

أحقا سيصل يسري بعد ساعة؟ أحقا ستلتقي مريم في باريس؟ السعادة لها حدود.. لا.. ليس لها حدود.. ماذا أفعل؟ ماذا على أن أفعل؟ راحت تجري من سريرها حيث كانت إلى الكوريدور إلى حجرة يسري إلى مكتبه إلى الكوريدور ثانية إلى السلالم إلى الحديقة تنادي "روبي" تخبره بعودة الدكتور يسري تلبسه البالطو الشتوي الذي أحضرته له.. يجب أن تكون في كامل لياقتك عند استقبال سيد القصر.. تعود مسرعة إلى الحمام تفتح الدش ناسية أن تخلع ملابسها يصدمها الماء البارد فتجري إلى دولابها تختار ما ترتديه.. احتارت ثم اختارت الفستان الذي كانت تلبسه يوم عيد ميلادها السادس عشر يوم رآها يسري لأول مرة بقلبه عادت للحمام أشعلت السخان.. لم تنتظر.. وقفت تحت الماء الدافئ جسدها يرقص وعقلها يطير أحقا ستذهب إلى فرنسا؟ أحقا ستركب الطائرة وتقضي رأس السنة وأعياد الميلاد هناك؟ أحقا سترى باريس التي قرأت عنها في المدرسة وحلمت بها؟ أحقا ستطيرين يا ندى يا ابنة حامد الجنايني إلى عاصمة النور؟ أحقًا ستلتقين بالفرنسيات وتتكلمين معهن بلغتهن؟ سأخبرهن أنني مصرية.. ولدت وتربيت في مصر أم الحضارات كما تدرسونها في مدارسكن.. قد تكون امي بدوية راعية غنم وابي فلاح لا يقرأ ولا يكتب لكنني ورثت عنهما أجمل ما في الإنسان: الحرية والحب.. وأنتن بلد الحرية والحب اخذت من امي حرية ريح الصحراء ومن أبي حب النبتة

للشمس وزوجي أخذ من أجداده الفراعنة شوقهم المبكر إلى الخلود. سأقول لهن: نحن كمسلمين نحب المسيح عيسى عليه السلام ونؤمن بمعجزاته التي خصه بها اللـه وكتابنا يقول عن "مريم العذراء" أنها خير نســاء الأرض وقد تزوج نبينا عليه الصلاة والسلام من ماريا القبطية.. يجمع ما بيننا كأديان الرحمة والتســامح والســلام وهذا يكفي، ارتدت ملابســها المختارة ووقفت تستعرضها وتدور حول نفســها أمام المرآة وبدأت تتســمع -متداخلًا في صوت "السشوار" صوت جــرس كاتدرائية "نوتــردام الكبير في باريس" ســتطلب من مريم أن تصحبها إلــى الكاتدرائية التي خلدها "فكتور هوجو" فــي روايته "نورتردام دي باري" التي لا تنســاها أبدا وهل يمكن أن تنســى "كوزيمودو" قارع الأجراس الأحــدب الأصم ذا العين الواحــدة الذي يبدو مــن خارجه قبيحا بينما هو فــي داخله جميل شــديد الجمال! هل يمكن أن تنسى هذا العاشق المسكين الذي أحب الغجريــة الجميلــة "أزميرالدا" حتى أنه دفن نفســه حيًا بجوارها بعــد أن أعدموها ثم وجدوا هيكلاهمــا متعانقين في المقبرة وحين حاولوا فصلهما اســتحالا إلى تراب! امتزجــا معا - يا مريم - هذا هــو الحب الخالد وهذا هو لقــاء الأرواح. (تبكي ندى ثم تضحك) هــل تذكرين "جالا؟" العنزة جالا التي كانــت تتجول مع الغجرية أمام الكاتدرائية؟ يظن القاضي وهو يحاكمها أنها شــيطان لمجرد أنهــا تتمكن من ترتيب حروف "فيبوس" اســم الضابط الذي تحبه

"أزميرالدا" كانت كلما وجـــه إليها القاضي التهمه مأمأت ماء ماء فيتأكد للقاضي أنها شـــيطان يسخر منه فحكم عليها بالحرق.. كان ذلـــك في الماضي في عصور الظلام.. نحن الآن في القرن الواحد والعشـــرين يا صديقتي وقد تغيرت العقول "لكن القلوب العاشـــقة ما تزال تحب ولن تتغير يا مريم".

أحست ندى تلك "الدوخة" تعاودها فغامت عيناها بعض الوقت لكنها استعادت يقظتها ما أن أحست أنفاس يسري فالتفتت تتأمل هذا النجم السينمائي - قبل أن تعانقه - يقف خلفها أنيقا مفرودا في بدلة جديدة شتوية وبيبونه حمراء.. يتّوجه شعره الأسود الطويل.. تحيط به هالة من العطر والنور.. أخذت تفرك عينيها تنقلها من الخيال إلى الواقع ثم ارتمت تتعلق بعنقه صارخة "يسري" وعلا صوت الدموع المحبوسة منذ عشرين ليلة وظلت معلقة إلى المحبوب تأرجح ساقيها في الهواء تبكي أحيانًا وتضحك أحيانًا بينما هو ثابت إلى أن أنزلها برفق واحتوى رأسها بين كفيه صامتا شامخًا كقائد عائد لتوه منتصرًا من معركة المصير.

أخذته من يـــده لا تدري أين تتجه به "تعال.. احك لي أين كنت وماذا فعلت" رد بكلمة واحـــدة: "انتصرت الحياة" صاحت مهللة: "أريد أن اســـمع التفاصيل أريد أن أسمع صوتك" أخذته إلى حجرة المكتب يخبرها وهما يجلســـان على حافة الشيزلونج: "لم أجد في

جسم فرحان أثرا للفيروس أو الدواء.. اختفى الاثنان تمامًا" لم تفهم ندى.. قال: "مات الموت" ثم وقف واتجه إلى النافذة وفتحها يتطلع بعيدًا.. كانت هناك في الأفق سحابات رمادية تعبر السماء اخترقها يسري ليرى ما وراءها. ظنته ندى يبحث عن صديقته اليمامة فتذكرت صديقتها مريم والرسالة التي أرسلتها.. وأخبرت يسري.. لقد جاءتها في نفس اللحظة التي كانت تفكر فيها كأنما كانت رسالتها ترد على تفكيرها أو كما لو كانت روحها قد التقت بروحها، وذكرت له الحديث الشريف كما درسته في الدين "الأرواح جنود مجندة.. من تعارف منها ائتلف ومن تنافر منها اختلف" فعلق: وهذا ما يفسره العلم بالتخاطر أو "التليباثي" صاحت: هذا أمر يتعلق بعالم الروح لا بالعلم.. تحب ندى أن تعارضه.. وسبق أن عارضته حين كان يشرح لها نظرية "الانفجار العظيم" يحاول أن يوصل لخيالها أن الكون لم يكن له وجود وأنه كان "صفرًا مطلقًا" مجرد كتلة صغيرة جدًا متناهية الصغر، لكنها لا نهائية الكثافة والجاذبية والحرارة ثم انفجرت هذه الكتلة منذ مليارات السنين لتشكل هذا الكون بما فيه من مجرات وأقمار وشموس وزمان ومكان.. يومها سألته ببراءة وهي تحدق فيه:

"ومن أعطى تلك الكتلة أمر الانفجار أيها العالم؟ من الذي أمرها؟ ومن الذي وضع فيها كل تلك الطاقة بل ومن الذي أوجدها أصلًا؟ من الذي قال لها "كن" فكان هذا الكون؟ وحين صمت واصلت:

ثم قل لي: من الذي يضع الشفرة الثلاثية داخل الكائنات الحية؟

أدهشت الدكتور يسري أسئلتها البريئة والتي لا يملك لها في نفس الوقت جوابًا رادعًا وسألها أي شفرة ثلاثية؟ فردت: "الميلاد والحياة والموت" القانون الموحد لكل الكائنات الحية.. النبات والحيوان والإنسان أم ان هناك من أفلت من هذا القانون؟!

رد عليها بهدوء: "ألم أقل لك لا تكبري"

ظلت "ندى" منهمكة في تجهيز حقيبة السفر عقلها يروح هنا وهناك ما أن تضع شيئًا في الحقيبة حتى تبعده أو تغيره إذ ماذا تأخذ إلى باريس وهي بلد الأزياء والعطور؟! اقتربت منه تسأله: "ماذا سآخذ؟"

قال "أنت"

تنهدت حبًا: ومن غيري؟ قال: "الدواء"

كان قد شرب شيئًا من الخمر لكي يتوازن.. كان يرى أن ما أنجزه حلمًا راود البشر جميعًا منذ الأزل.. منذ أن وعوا نهايتهم التعسفية على يد الموت. هل حقًا انتصر على كل أسلحة العدو؟

هل حقًا اخمد دواؤه أنفاس ذلك التنّين الذي لم يترك كائنًا واحدًا إلا وترصده وقضى عليه؟

التفت يسري لندى راقصًا في خيلائه:

"لم يعد هناك خوف بعد الآن.. لا عليك ولا عليّ" وأخذ يحقن نفسه بحقن متتالية من الثقة والعظمة: "لقد فتحت القوس المحكم الذي ظل يحصر عمر الإنسان في زمن محدود.. فتحت إحدى القوسين لينطلق الإنسان في الزمن المطلق.. أليس هذا هو الخلود؟"

يختال الدكتور يسري تيهًا وهو يخبر ندى بسر الدواء فتكاد تقول له: إن ما يعنيني هو دوائي.. أنا القبلة العميقة المؤجلة من سنوات وملحقاتها..

ذات يوم -يحكي لها يسري- أثناء سفرياته العديدة إلى أسوان في زياراته الدورية لمعابد الأجداد بحثًا عن سر الخلود.. حدث أن تعطل القطار في الطريق وتوقف طويلًا وساد الظلام وغلب المسافرين التعب والانتظار فنعس معظمهم فيما عدا سيدة بسيطة كانت تجلس قبالته تحمل على كتفها طفلًا رضيعًا يغطّ في النوم.. ويبدو أنها كانت تريد أن تحدث أحدًا فأنست إليه وبدأت الكلام بصوت هامس تبوح بسرها الدفين.. ولولا الليل الطويل وصمت القطار ما باحت به.. قالت: إن زوجها مات شنقًا.

هكذا بدأت حكايتها.. مات شنقًا وظلمًا! وهي لم تشك لحظة واحدة في براءته.. فقد كان "يحيى" ضعيف القلب.. هشًا.. لا يقوى على إيذاء دجاجة فكيف له أن يقتل؟ كان ضعف شخصيته قد يسّر له التعرف على أصدقاء السوء فاستغلوا سذاجته بعد ارتكاب

جريمتهم وتركوا آثارها في حقيبة لديه فكانت دليلًا قاطعًا على أنه القاتل، وفشل في إثبات براءته

كان "يحيى" يعشقها كما كانت تعشقه.. تحبه نظرًا لضعفه وهشاشته وحاجته إلى الحماية بعد أن استحال لها الإنجاب كما أخبرها الطبيب فحين ذهبا إليه كان خائفًا كطفل يخشى عقاب المعلم، فماذا يقول له، وهو الذي تعامل معها في ليلة الزفاف وما بعدها كما لو كان لم يمس امرأة من قبل في حياته! فبقيت عذراء وزاد العشق بينهما لاحتياج كل منهما للآخر هي كملاذ له، وهو كابن وحيد

كان "يحيى" بريئًا كطفل حتى أن جنود السجن الذين أشرفوا على إعدامه حققوا له رغبته الأخيرة -سرًا وبالإجماع- وسمحوا لها أن تمضي ليلتها الأخيرة معه رغم اللوائح والقوانين ورغم الجنون نفسه.. ألا يكفي أنهم أحياء يمارسون الحياة بينما هو في طريقه إلى الموت؟

وليلتها -لا تصدق هي حتى الآن- كان معها بقوة عشرة رجال كانما تحول إلى عاصفة من العافية والعطاء والحيوية كما لو كان قد اختصر حياته كلها في تلك الليلة والتي حولتها إلى امرأة.

وكانما تنبهه السيدة قالت للدكتور يسري: "أمام إنسان سيعدم في الصباح الباكر وسيساق إلى الموت وحيدًا في غرفة مظلمة وبلا رحمة تنتبه الحياة داخله بقوة وتصل إلى أقصى حد لها في دفعة

واحدة.. يضيف الدكتور يسري وهو يحكي لندى أن السيدة.. نبهته إلى القانون السري للحياة والموت، وسر دوانه

تسأله ندى عن الطفل الذي تحمله السيدة على كتفها.. هل تبنّته بعد إعدام الزوج؟

فيخبرها أنه ابنها وابنه.. وإنها حملت منه في تلك الليلة وسمته "يحيى" الصغير كأنما هو الزوج الراحل بعث من جديد.

وما أن صحا حين تحرك القطار حتى صوصو يطلب الرضاعة فوضعت أمه يدها في صدرها وأخرجت ثديها- بفخر ودون خجل وأمام كل الركاب، وألقمته الحلمة.

ويضيف يســري من عنده كأنما يطلع ندى على القانون السري للحيــاة والذي يتحقق في حالة العشــق فقط - إنهــا القوة المضادة للموت دفاعًا عن الحياة في شــكل أجســام مضادة خلايا فاعلة في الدم.. ضد الموت عامة.

وكما لو كانت تنتظر تلك الكلمات.. خرجت ندى تجري أمامه حافية وسط فراشاتها السحرية "اِلحق بي لو أمكنك"

وبين عزف النايات ودقات الطبول وزغاريد أمها خلعت ندى كل أوراقها تجري عارية أمام يسري إلا من ورقة التوت.. تزقزق كعصفورة.. وتهدل كيمامة.. وتصهل كفرسة تخفي نهديها أحيانًا

وتترك لهما الحرية أحيانًا بينما يسري -حافيًا مثلها- متجردًا من ملابسه أيضًا يرفرف وراءها طائرًا أبديًا حرر نفسه بنفسه من كل الأقفاص.. تصعد الأشجار فيصعد وراءها تتماهى وسط الحقول فيدلّه عليها البنات.. يغوص في البحار فيصادق الأسماك.. تحلق في الفضاء فيحلق، فقد كانت رائحتها تدله عليها دائمًا.. وأدركهما التعب من لعبة "الاختفاء والظهور" فحطا أخيرًا في غرفة النوم رجلًا وامرأة وعلى السرير كان اللقاء الجسدى المحموم المؤجل منذ أول الزمان فكانت القبلات العميقة التي أدمت الشفتين والتي ما كانت تترك مجالا للتنفس ولعلهما لم يكونا في حاجة إلى ذلك التنفس الخارجى إذ كانت كل خلايا الجسم في حال من الوجد الصوفى الذي لا يتاح إلا في لحظات العشق القاسي.. ها هي الحياة كلها مكتملة ونابضة ومشرقة في الغرفة لأول مرة.. القمر الورقى يضيء لأول مرة بالألوان.. والفراشات تغادر الجدران تحوم حول النهدين وتحط على الحلمات ثم تطير لتضع رحيقها العسلى في السرّة ولأول مرة تُسمع موسيقى خاصة لم يسبق أن عزفها موزار في حياته ممزوجة بزقزقات من طير لم يوجد أصلا على الأرض.. وهل كانا -والحال هكذا- على الأرض؟! وما أن وعت نفسها حتى همست له:

"لا تحدثني عن الدواء.. أنا وحدي دواؤك"

قال: "نعم.. ولكن ما يزال السم في العسل"

لم تفهم فأخبرها بما أخفاه عنها طوال فترة العذاب.. أخبرها - لأول مرة - أنها مريضة بنفس المرض الذي قضى على شروق.. وأن السم ما يزال داخلها وأنه هو الذي كان يسبب لها الدوخة وانه هو الذي كان يقف حائلًا بين شفاههما وأنه كعاشق كان يحافظ على حياته ووعيه وذاكرته لا من أجل نفسه، وإنما من أجلها.. هي

لم تصدقه وعادت تلعب بها الهواجس.. أتراه قد عشق غيرها في فترة غيابه وما عودته منتشيًا إلا من أثر ذلك العشق الجديد؟

أخذت تبوح له بهواجسها فيركع تحت قدميها يقبلهما راجيًا أن تصدقه وأن تصدق أن المرض ما يزال يعمل في داخلها ولابد من تنقية جسدها حتى لا تموت وحتى لا يموت بعدها، واندفع إليها يحاول تقبيلها فوضعت كفها حائلًا بين شفاههما وانهارت وسقطت على الأرض فجن جنونه وأخذ يهزها وقد فقد التركيز كطبيب.. أتراه الموت يريد أن ينهي اللعبة بالضربة القاضية؟

"ندى.. ندى" كان جسدها متخشبًا لكن النبض كان يعمل.. أخذ يدلكها حتى لم يبق أمامه إلا أن يمنحها "قبلة الحياة".. ولم يفكر، قبض على شفتيها بشفتيه ينفخ فيها أنفاسه وما أن أحست ندى بذلك حتى انتفضت حية.

"هو لا يعرف ما حدث في غيابه.. لقد كسرت باب المعمل وفتحت الثلاجة وأخرجت الدواء وسكبته في الحمام وفتحت الخزانة وأخرجت كل الأوراق الدالة عليه وأحرقتها كان لابد لها أن تفعل ذلك إذ كان عابد المحامي يسعى إلى سجن الدكتور يسري منتهزًا فرصة غيابه عن القصر ظنا أن مرض الزهايمر قد أوصله إلى حالة التوهان فخرج يذرع الشوارع على غير هدي ولن يعود.. فحثها عابد على طلب الطلاق يخبرها أنه سيساعدها في ذلك على أن تتزوج من ابنه طالب الجامعة الأمريكية فهو يليق بها وهي تليق به سنا وثقافة ومستقبلا. ولما رفضت كل ما قال لجأ إلى التهديد يخبرها أنه أقام دعوى مستعجلة ضد يسري يتهمه فيها بعمل تجارب خطرة على البشر أدت بهم إلى الموت واستخرج شهادة تثبت وفاة عايش العريان وأبلغ الشرطة لتحريز الدواء والأوراق في القصر. وما أن علمت أن الشرطة قادمة في الطريق لتفتح المعمل والخزانة حتى أسرعت تتخلص من الدواء والأوراق خوفا على يسري وإبقاء عليه؟ هل سيقدر يسري ذلك إن أخبرته به أم ستفقده ويفقدها؟ هي لا تخشى على نفسها بقدر ما تخشى عليه.

صحبها معه سعيدًا إلى المعمل بينما هى تحس أنها مساقة إلى غرفة الإعدام.. استوقفته قائلة: "لماذا تتعجل الأمور تعال إلى غرفتي فقد أوحشتني أريد ان أشبع منك" رد بابتسامة متعجلة: "بعد أخذ الدواء ستكونين افضل وساكون أفضل" تمنت في تلك اللحظات أن

يفقد ذاكرته.. أن تظلم رأسه تماما فلا يعود يذكر مكان المعمل ولا رقم الخزانة؟ ارتمت عليه تقبله في كل أجزاء جسمه.. في وجهه.. في شفتيه.. في عنقه.. في شعره.. في صدره تريد أن توقظ فيه الرغبة ثانية.. فأبعد يدها وصاح برفق: "لا شهوة عندي الآن إلا للدواء" وأخذ يحدق فيها بينما هي تحدق فيه معتبرة أنه في حالة أقرب إلى حالة الغائب عن الوعي.. نفس الحالة التي رأته عليها في القبو ساعة حقن فرحان وفي الغرفة حين شاهد مذابح الحرب في التليفزيون فأخذت تواصل شحنه بمزيد من الغضب تبعده عن التفكير في الدواء وتعلو بالانفعال ولا يهم فستتحمل أي رد فعل إلا أن يدخل المعمل فلا يجد شيئًا.. أخذت تبكي وتلطم خديها كما لو كان أصابها جنون مفاجئ وارتمت على الأرض تصرخ مرددة أنه تحول عنها وأنه عرف امرأة أخرى أثناء غيابه ثم أسرعت تجري مهددة أنها ستنتحر فأسرع وراءها حتى المطبخ يحاول أن يبعد يدها التي امتدت إلى السكين بينما يعلو صوتها.. "سأترك لك القصر والحياة والدنيا كلها ما لم تتخلَّ عن هذا الدواء". حدق فيها يحاول أن يقرأ داخلها ثم دفعها عنه وألقى بالسكين من النافذة وانفلت مسرعًا آخذًا طريقه إلى المعمل.

وقف الدكتور يسري أمام باب المعمل غير مصدق!.. كان الباب مكسورًا ومفتوحًا.. أيمكن أن تكون قد دخلته في غيابه تتجسس على

تجاربه؟ اندفع داخلًا قاصدًا الثلاجة مباشرة.. فتحها فلم يجد قنينة الدواء.. كذب عينيه وعاد يحدق.. لم يجد شيئًا.. دار به المكان ولما استعاد توازنه عاد يبحث في كل أرجاء المعمل.. في كل الزجاجات ربما كان قد نسي زجاجة الدواء خارج الثلاجة لم يجد شيئا.

غادر المعمل قفزًا عائدًا إلى المطبخ حيث كانت ندى.. "من الذي فتح المعمل؟ كانت ترتجف وأسنانها تصطك فلم تنطق.. اقترب منها يهزها من كتفيها! "من كسر باب المعمل؟" قالت وقد زاد ارتجافها: "الشرطة" كانت تكذب لكنها كانت تحاول النجاة بحياتها.. فهذا الذي يقف أمامها يسألها لم يكن هو الدكتور يسري أبدًا.. رأته في تلك اللحظات جزارًا يمسك المشرط لا ليعالج وإنما ليذبح انحنت على يده تقبلها "سامحني سامحني" لم يسمعها انطلق إلى حجرة مكتبه إلى الخزانة الحديدية فما تزال هناك الأوراق وربما كانت زجاجة الدواء داخلها.

وقفت ندى مكانها - في المطبخ - مذهولة تفكر: لقد جربت معه كل الوسائل.. لم تعد تفهمه؟ لقد أهانت نفسها إلى الحد الذي جعله يدفعها عنه كأنها عبء عليه؟ هل أفاق من غيبوبة الحب؟ أم يفعل هذا حرصًا عليها؟ لماذا لا تخبره أنها فعلت ما فعلت من أجله أيضًا؟ ستخبره أنه الرجل الذي اختارته كما هو شكلًا وقلبًا وعقلًا وأحبته كما هو الطبيب المثقف الواعي الواثق بنفسه والذي ينم مظهره الخارجي

عن جمال داخله وهكذا استقرت أفكارها أن تخبره بالحقيقة وأنها تخلصت من الدواء والأوراق حرصًا عليه، وأسرعت إلى حجرة مكتبه. كان الدكتور يسري الراوي أمام الخزانة يطلّ فيها فلا يرى الأوراق.. لم يصدق عينيه فلجأ إلى يديه يدسهما عميقًا داخل الخزانة فلم يمسا شيئًا فعاد يطل من جديد ثم عاد يتحسس وأخيرًا قرر أن يدخل رأسه كاملًا ليرى ولم يكن داخل الخزانة سوى الظلام.

بقيت ندى جامدة أمام مشهد الرأس المختفية في الخزانة حيث لا شيء.. عليه أن يعرف الأسباب.. فانطلق صوتها عاليا. "فعلت هذا من أجلك.. كان عابد المحامي يريد سجنك.. أبلغ عنك وكانوا قادمين للقصر سعيا إلى دليل إدانتك فأسرعت أتخلص من الدليل.. سكبت المزيج وكسرت القنينة وأحرقت الأوراق" وعلا صوتها أكثر وهي تقترب منه "فعلت ذلك من أجلك.. فعلته خوفا عليك.. فعلته لأنني أحبك".

أخرجت ندى كل ما كانت تحبسه داخلها واستراحت أنها قالت الحقيقة ولابد أنه سيتعقل ويقدّر اعترافها ويغفر لها.. لم تفكر أبدا في نفسها.. في ذلك الذي أخبرها به أنها مريضة بأخطر أمراض العصر والذي راحت ضحيته شروق.

ظلت راس الدكتور طويلا داخل الخزانة حتى ظنت أنه أغمى عليه فاقتربت أكثر تريد أن تنبهه وأخيرا خرج الرأس من الظلام!

وما أن رأته ندى حتى أسرعت تتقهقر مذعورة إلى أن التصقت بالحائط تحدق فيه وتغمض ثم تعود تفتح عينيها وتحدق: رأس من هذا؟ "لمن هذه الرأس؟!" أين يسري؟

هيئ لها أن المشهد ليس حقيقيًا وأن ما تراه إن هو إلا كابوس.. كان الرأس الذي أمامها لرجل عجوز مسنّ أشيب الشعر متغضن الوجه له عينان منطفئتان تعلوهما جفون ميتة بينما اختفت الشفتان لتصبحا مجرد أثر لشق قديم. وما أن رأته يقترب منها حتى صرخت واندفعت تجري في الممر تتعثر وتقع وتنهض حتى دخلت غرفتها وأغلقتها.. بمن تستنجد وتستغيث؟ كانت فيما قبل تستنجد بيسري حين تدهمها المخاوف فبمن تستنجد الآن؟ اتجهت إلى الدولاب تفتحه تختفي داخله تنظر في مرآته الداخلية تتأكد أنها هي هي ثم حين خرجت وجدته أمامها وقد كسر باب الغرفة ودخل.

لم تقو ندى على الصراخ.. قفزت إلى السرير وتكورت تتوسل إليه: "أنا مذنبة.. أنا مجرمة" إذا كان الدواء قد سكب وأوراقه أحرقت فماتزال العناصر موجودة فيْ ذهنك أليس كذلك؟ كانت الكلمات تومض في الضوء الخافت في رأسه ثم تنطفئ سريعا.. لا يعرف كيف يستوقفها.. يحدق في الفتاة التي أمامه يحاول أن يتذكر أين رآها من قبل؟

وقفت ندى تنظر إليه تبحث عن شئ تحطمه فاندفعت إلى المرآة

وقذفتها بفازة فحطمتها.. لا يجب أن يرى شكله ولا أن يراه أحد.. اقتربت منه تنفخ أنفاسها في وجهه تحاول أن تعيد تشكيله كما كان ثم سألته تطمئن على وجودها هي: "من أنا؟" حدق فيها وفي الفراغ وفي داخله وشرد. رفضت أن يكون قد نسيها ورفضت أن يكون هو يسري

***

يوما يرحّل لصفحة جديدة بعد يوم باتت ندى تأخذه إلى الحمام تصبغ له شعره تدلك جسمه بالماء الدافئ وتساعده في الوصول إلى غرفتها تعطره وتدير له موسيقى "موزار" إلى أن ينام لا تخرج منه إلا كلمات مأكولة غير مترابطة تحاول تفسيرها وهي ساهرة إلى جواره.. كان يهب من نومه يتلفت حوله كأنما يبحث عن شيء ضاع فكانت تدير وجهها نحوه عله يبحث عنها فكان يبتسم ويعود إلى النوم.

ومع توالي الأيام أمست لا تكتفي بمجرد حراسته أثناء النوم بل كانت توقظه أحيانا تغني له وهو شبه مخدر إذ قد يكون وهو في هذه الحال قابلا أكثر للتأثير فيه.. تغني له من أغاني خوليو فيهز رأسه وأصبحت تقرأ له أشعارًا من تأليفها هي تتغزل فيه وتذكره بشهر العسل وبالبحر فيطيل النظر إليها ويعتصر ذهنه ويغمغم بكلمات غير مفهومة. تكاد ندى أن تجن: أيمكن أن يظلم عقل

الإنسان هكذا؟ أيمكن أن يتحول العقل من محيط يسع الكون جميعًا إلى مجرد بحيرة راكدة؟

تصرخ فيه:

"أنت سيد هذا القصر وسيد هذه الأرض وسيدي وأنا رفيقة حياتك كيف لم تعد تذكرني أو تنطق اسمي؟ لم يعد يسري قادرًا على أن ينظر في أي شيء إلا للحظات يعود بعدها للشرود لكنه أثناء الليل - حين يستغرق في النوم العميق - تنفلت من بين شفاهه بضع كلمات واضحة تماما لا تخرج أبدا عن دائرتين اثنتين: أمه التي ولدته وابنه الذي مات

*

كيف يراها الآن؟ - تتساءل ندي - وقد مر شهران على حالته أيراها كما هي أم يراها مشوشة.. ربما أصبحت عيناه من الضعف بحيث تختل فيها الصور كذلك سمعه. لذلك بدأت تهتم بصحته.. تغذيه التغذية الصحية كما تعلمتها منه وكما كان يحرص علي تناولها وأضافت إليها الفيتامينات وأشعة الشمس صباحا ومساء رغم قلتها مع دخول الشتاء حتى تحسنت صحته إلى حد ما فبدأت تسأله بعض الأسئلة لترى النتيجة وكان يعتصر ذهنه يحاول التركيز كما لو كان يطارد خفافيشا سريعة الطيران عصية الإمساك تجول داخل رأسه فتكف ندى عن أسئلتها لكنها تواصل ترميمه.. صبغت له شعره الأبيض تعيده أسود كما كان واهتمت بوضع الكريمات إخفاء للتجاعيد ووصل بها الأمر الي ان ذهبت به سرا الي إحدي عيادات التجميل تحقن شفتيه بالبوتكس حتي انتفختا من جديد. عاد شكل الدكتور مقبولا لكن ذاكرته ظلت مشوشه تهيم داخلها ذكريات قديمة تتداخل وتتضارب تتعرف ندى علي بعضها أحيانا ولا تتعرف علي أخرى أحيانا كان يتجه إلى الموبايل مثلا فيمسك

به ويرد علي المتحدث بهمهمات معتقدا أنه صديقه "توم" في حين أن الموبايل لم يرن أساسا كما كان يطلب من ندى أن تسرع إلى الشرفه حيث هشام ابنه تمنعه أن يطل منها حتي لا يجذبه لاعب النار.. أحيانًا يحدثها على أنها "رشيدة مطلقتة فلا تعترض أو يسأل "هل انتهت الحرب؟" فتجيبه: "نعم وعم السلام".

حيــن عاودتها "الدوخة" مالت إلى أن تصدق أنها مريضة فعلا وحياتها مهددة كما قال وأنه ما صنع الدواء إلا من أجلها فأصبحت تفكر في نفســها أيضا وفي حقها في أن تعيش وأن حياته ضرورية لحياتها لذلك أصبح هو همها الدائم ليل نهار.. فكرت أن تحصر ما بقي من ذاكرته في نطاق محدود وأن تضعه أمام الأشــياء مجسدة حتي يتمكن من اســتحضار صورها في ذهنه فصحبته إلى حجرة مكتبــه بعد أن غطــت الخزانة حتي لا يقع عليهــا بصره وقربته من التماثيل المتراصة خلف المكتب تشــير إليها "أصدقاؤك" تنهد فاعتقدت أنه - بشــكل ما - ســيتعرف عليهــم فواصلت: "صديقك بروميثوس الذى ســرق النار ليهديها للبشــر قديما فعاقبته الآلهة.. والاسكندر الأكبر الذى علمه أرسطو ألا يهدم فيني. وجاليليو الذى هز عرش الكهنة.. وهذا إديســون الذى أضاء العالم.. وهذا يسري الراوى مشــيرة إليه الذى حاول أن يقفز قفــزه أعلى منهم جميعا ويتحدى الموت فعوقب في ذاكرته بالنسيان.

باتت الصور المعلقة علي الجدران تتراقص أمامه متحولة إلى أشباح فيسرع يدخل إلى المطبخ يضئ النور - الذى كان مضاء أصلًا فيرتعش النور فيزعق فتسرع ندى تجلسه إلى المنضدة الصغيرة وتضع أمامه الطعام والذى يكون معدا من قبل.. أخرجت له يوما صينية البطاطس من الفرن وطبق الفاكهة الطازجة من الثلاجة وقدمتها له وقبلت جبهته وهمست: "كل" فأمسك تفاحة واستبقاها في يده فعادت تقول له "كل" نظر إلى التفاحة يهم أن يرفعها إلى فمه لكن يده توقفت في منتصف الطريق بين يده وفمه فأخذت تنبهه "كل" لكن يده لا تسمع فيعلو صوتها "كل يا دكتور" لكن يد الدكتور ثابته.. يتحول صوتها رجاء" كل يا دكتور من أجلي كل "لكن لا يده تتحرك ولا نظراته تستجيب..هل نسي مكان فمه؟

تقف ندى تكاد تلطم خديها: "أنسيت مكان فمك؟ نسيت مكان الطعام؟ كيف؟ الوليد ينزل من بطن أمه عارفا مكان فمه فكيف تهت عنه؟! ستموت إن لم تأكل. وسأموت معك.. تقترب منه وتضحك في وجهه ضحكة عابسه "هذه تفاحة يا حبيبي وهذه يدك وهذا فمك.. هيا تعرف عليه وكل لكن لا حياة لمن تنادى. تأخذ ندي قضمه من التفاحة تذكره بأنها تفاحة وأنها تؤكل وتعيدها إليه فتقع من بين أصابعه.. لابد أن البرد القارس قد جمد الإحساس في أطرافه.. تأخذ يده تدلكها وتحتضنها وتنفخ فيها أنفاسها وتعود تضع التفاحة في يده فتعود التفاحة تسقط.. تتحرك ندى وتصنع له كوبا من الكاكاو

الساخن وتنقله من كوب لآخر لتقلل من درجة سخونته ثم تقربه من فمه لكن الشفاه منطبقة. كيف؟ إن لم يكن قد أحس بسخونة الكاكاو فكيف لم يشمه؟ كيف لم يتعرف عليه أنفه؟ هل تعطلت حواسه أيضا؟ ابتعدت تجلس على مقعد أمامه تتأمله.. أحست وهى تنظر إليه أن يدًا قاسية تطبق على صدرها فأسرعت تزيح الستار المعدنية عن نافذة المطبخ تسحب كل ما تقوى عليه من الهواء الآتي من الحديقة وفكرت أن تزعق مستنجدة بعبده البواب.. لكنها رفضت أن يرى البواب سيد القصر علي هذه الحال وأتاها صوت الدكتور مع صوت الريح يذكرها "أمام الحالات الحرجة في حجرة العمليات يجب التفكير بهدوء إذ قد تؤدي العجلة والانفعال إلى موت المصاب" عليها إذن أن تفكر بهدوء فقط لو تعرف ما الذى أوصله إلى تلك الحالة؟ من الذى التقاه في الظلام ورأسه داخل الخزانة فأنتقم منه بهذا الشكل؟ كان عقلها يفكر في الدكتور بينما كان الدكتور يتسمع في صوت الريح أصوات الموتى: كرفرفة أجنحة ترتطم بوجهه فيهشها عنه فتدرك ندى مخاوفه حتى باتت تضئ كل غرف القصر وتتركها مضاءة ليل نهار وفكرت أن تأتي بروبي من الحديقة يتمشي في ممرات القصر حارسا ومؤنسا لكنها ترددت وخافت فقد يصيبه السعار فجأة وأخيرًا اهتدت إلى أن تترك التليفزيون مفتوحا بصفة دائمة حتي يمكنها أن تغفو قليلا - تريح عقلها وجسمها - من السهر الدائم لكنه

كان يخاف من الصوت الخارج من الجهاز وانتهت إلى أن تترك التليفزيون حتى الصباح مفتوحًا على القرآن الكريم.

***

تصرخ ندى في القصر الواسع وحدها: لا.. لن تموت.. ولن تغيب عن عيني.. ثم تصمت وتطرق وتشيح بوجهها عن وجهه وتعود تنظر إليه فتجده كالجثث الفرعونية المحنطة

وفجأة تذكرت ما سبق أن أخبرها به الدكتور يسري عن الخلايا الجذعية.. تلك الخلايا السحرية القادرة على بناء التالف في الجسم وبث النماء فيه من جديد فأسرعت إلى حجرة الحاسب الآلي تتصل بالمراكــز المتخصصة.. اتصلت بالمراكز في أوروبا والمكســيك وقبرص حيث يوجد هذا النـــوع من العلاج فأخبروها أن التكاليف باهظة قالت: لا يهم المهـــم النتيجة.. لكنها قرأت في مواقع أخرى تحذيرات من تلك المراكز فكثير منها يسعى إلى المال أوّلا

أخذت تبحث عن مراكز أخرى.. اختارت فرنسا بالذات فقد درستها في الليسيه لغة واستنارة ثم إنها حين تروح فستكون الفرحة فرحتين فسيعالج يسري وتعالج هي معه وستلتقي بمريم وحالفها الحظ حين اتصلت بأشهر المراكز الحكومية المتخصصة هناك وما

أن أخبرتهم بالمعلومات حتى اكتشفت أنهم يعرفون الدكتور يسري شخصيا كباحث له قيمته وله حضوره في المؤتمرات العلمية وفي المجلات الطبية وأنهم يرحبون بحضوره فأسرعت واتصلت بشركة "إيرفرانس" وأكدت الحجز إلى باريس.. ثم اتصلت بمريم تخبرها بموعد الوصول على الطائرة الرحلة 787 وكادت خبرتها المحدودة تفسد عليها الرحلة كلها فقد كانت تظن أن التذكرتين كافيتان لكنها علمت أنه لابد من تأشيرة للدخول إلى فرنسا.. بعد الإجراءات الجديدة المتشددة أمام الإرهاب والإرهابيين.. أسرعت تتصل بالسفارة فطلبوا منها الحضور لختم جوازات السفر.. كاد قلبها يتوقف فلا وقت فلم يبق على موعد السفر سوى ليلة واحدة.. أخذت تتوسل إليهم لكنهم أخبروها أن النظام هو النظام.. وما أن أخبرتهم أنها زوجة الدكتور يسري الراوي طبيب المخ والأعصاب وأنها تسافر لعلاجه حتى فوجئت بالسفير نفسه يتصل بها ويطلب منها عدم الحضور.. فقط ترسل له صورتي جوازى السفر بالموبايل وهو سيرسل لها موظفا ينتظرها في المطار ليسلمها تأشيرتي الدخول.. عليها إذن أن تراجع محتويات حقيبة يدها: التذكرتين.. جوازي السفر.. دفاتر الشيكات السياحية الدولية.. الموبايل.. سلسلة مفاتيح الغرف التي أغلقتها.. ثم تحسست القرط الأخضر من الزمرد الذي يتدلى من أذنيها والذي أكد لها الدكتور أنه من ممتلكات الممثلة الراحلة إليزابيت تايلور كانت تلبسه كملكة في فيلم كيلوباترا اشتراه من مزاد علني في هوليوود..

قد لا يكون الأمر كذلك لكنها تحب أن تصدقه.. يكفي أنها تحس ما أن تلبسه أنها ملكة وأنه من هدايا يسري.

حين عادت ندى إلى حيث كان يجلس يسري لتزف إليه النبأ لم تجده.. أخذت تبحث عنه في كل غرف القصر فلم تعثر له على أثر.. كانت تعرف أنه يتوه فلا يعرف أين يتجه.. أين يمكن أن يكون قد ذهب؟ هل نزل إلى الحديقة.. الجو في الحديقة لا يشجع إطلاقًا على النزول فهو شديد البرودة مظلم بالسحب السوداء الكثيفة مهدد بالرعد والبرق ومع ذلك أطلت من النافذة على الحديقة فلم تر أحدًا حتى روبي نفسه اختفى داخل كشكه.. أين يكون قد ذهب.. بحثت حتى تحت الأسرة وفي كل الغرف والأماكن الممكنة وأخيرًا فكرت في أن تذهب إلى الدور العلوي بالقصر.. ذلك الدور الذي لم يسبق أن دخلته أبدًا.. والذي كان مهجورًا ومكروهًا منذ أن سقط منه ابنه هشام.. جازفت ندى وصعدت عدة درجات لسلم يوصل إلى هناك.. كان جسدها ينتفض كلما اقتربت من مدخل المكان فقد كانت تسمع صوت بكاء يتزايد ويقترب حتى يصبح نحيبًا.. استعاذت بالله من الشياطين وتوقفت تفكر.. فاستبانت تدريجيًا صوت يسري.. أيمكن أن يكون هو حقًا أم أن الريح تشكل مخاوفها أنينًا؟ جازفت ودخلت.. فوجدته.. يسري نفسه مكومًا يدفن وجهه في ملابس طفل صغير.

لم يكن المكان مظلمًا تمامًا فقد كانت هناك نافذة مفتوحة يدخل منها قبس من النور.. وأمكنها أن ترى فيما يشبه الظلام كرة ملونة وبسكيلتة بثلاث عجلات وحصانًا من الخشب وكرة لابد أنها ألعاب ابنه.. وقفت ندى صامتة لا تنطق كأنما هي في معبد بينما نحيب يسري يتبدى كأنه صوت راهب يتلو صلواته.. اقتربت منه دامعة وجلست وانحنت إليه تنبهه لوجودها وتحاول أو تخبره بما قالوه لها في الجهات الطبية في فرنسا.. كانت تحاول أن ترتب كلماتها.. ستقول له.. أبشر فستعود كما كنت.. وفي هدوء تام همست له بكلماتها وما أن رفع عينيه المحمرتين حتى شهقت ببكاء مكتوم إذ مد يده بملابس ابنه الراحل مشبعة بدموعه وهمس كلمة واحدة "هشام" ثم أشار إلى النافذة المفتوحة: ماذا يعني؟ هل يعني أن روح ابنه تجئ إليه تزوره كلما أوحشته عبر النافذة؟

أيمكن أن يكون وهو غير المؤمـــن إلا بالعلم وبالقانون العلمي مؤمنًا في قرارة نفسه بالروح؟

سارت به خارجة تهبط السلمات مسحت دموعه وقبّلت جبينه ثم أخبرته بما قاله المتخصصون في فرنسا وكيف أنهم رحبوا به ترحيبًا عظيمًا وأن الأمل كبير في الخلايا الجذعية لها وله فابتسم كأنه فهم

قالت: سنسافر معا وسنعود معا

وصاحت به: أصبحت خفيفًا ثم حملته وحممته وخرجت به ملفوفًا في البرنس فألبسته ملابسه الرياضية رغم اتساعها.. ولبست هي ملابس السفر وأخذت حقيبة يدها الحاوية كل ما يلزمها واتجهت به إلى الحديقة.

تذكرت: لابد سيفتشونها هناك في مطار باريس كإجراء طارئ بسبب الإرهاب.. هي لا تحمل شيئًا ممنوعًا سوى رأس الدكتور يسري. تذكرت الرسام العالمي سلفادور دالي في أحد المطارات يسألونه إن كان يحمل ممنوعات فأجابهم "نعم" سألوه: أين؟.. فأشار إلى رأسه "عبقريتي".. هي أيضا تحمل معها رأسًا عبقرية أليس كذلك؟ خطت إلى الحديقة.. كانت الطبيعة غاضبة جدًا لكن لابد من اختراقها للوصول للمطار.. وما أن خطت أولى خطواتها حتى ثبتتها الريح بحملها الفريد وأخذ البرد يصفعها بسياطه ولم يسعفها نور المصابيح في طرقات الحديقة فقد كان شحيحًا بعد أن اعتقلته غلالات البخار والرطوبة. ولأنها اعتادت أن ترى بقلبها فقد رأت برد الشتاء أصح للجسم من حرارة الصيف وهذا السحاب القاتم المقيم فوقها خير لنباتات الحديقة يعفيها حين تمطر من الري.. بل ورأت الوحل الذي تخلف عن المطر حِنّاء فرغبت أن تخلع حذاءها وتسير حافية تحنّي قدميها وصارعت الريح حتى وصلت إلى أحواض الزهور فهرع إليها روبي مرحبًا يهزّ ذيله إذ نسيت إطعامه بينما كانت هي مشغولة عنه تحدث يسري: "هذه هي زهرة القرنفل حمراء كما ترى كخدود

البنات في الصيف.. وهذه زنبقة بيضاء كثوب العرس وهذه لؤلؤة.. وهذه حذاء فينوس".. كان روبي يجاهد أن يرفع أذنيه المتدليتين مدهوشًا وهو يرى ندى تحمل الرجل الكبير وتنبهه إلى زهور لم تعد موجودة بعد أن أسقطها الشتاء. جرى روبي عائدا يتحصن بكوخه بينما اتجهت ندى إلى الباب الحديدي الرئيسي تنادي على "عم عبده" كي يفتح لتخرج.. لم تتلق ردا.. عادت تنقر على الباب وتنادي لا رد. أين ذهب هذا الرجل النائم أبدا.. كيف ينام في هذا البردالقارس؟ عادت تخبط وتنادي حتى تأكدت أنه غير موجود. فاستدارت كي تعود لتحضر المفتاح الاحتياطي. كانت الريح قد قويت والبرد اشتد وبدأ المطر وبدأت أوصال الدكتور تتجمد فيدخل رأسه في صدرها تحت البالطو يتلمس الدفء بينما أخذت تسير بحذر يعرقلها الحذاء الذي ينغرز في الوحل وأخيرا تخلّت عنه حتى لا تقع وسارت حافية.. عادت إلى حجرة المكتب وفتحت الدرج والتقطت المفتاح وغسلت قدميها ولبست "بوت" ذا كعب عريض وعنق طويل. وحين همّت بحمل الدكتور من جديد راح ينزلق عن صدرها رافضا الخروج إلى ذلك الصقيع.. أخذت تشجعه فالتاكسي الذي سيوصلهما للمطار سيكون مكيفا وهواؤه ساخن كذلك الطائرة ولما رأته مصرا على الرفض خلعت البالطو عنها ودثرته به فاختبأ داخله وحملته عائدة تعبر الحديقة تجاه الباب الحديدي وما أن وصلت إلى الباب بعد صراع مع الريح والمطر والبرد والطين وضعت المفتاح في ثقب

الباب. تديره فلا يتحرك.. الباب ثقيل.. ويدها ضعيفة.. أخذ يسري ينظر إلى ندى في بؤس فحولت وجهها عنه تضرب الباب بقبضتها وتزعق لكن الجبل لا يتحرك.. المسافة بينهما وبين المطار تطول.. والريح تشتد وتعوي وتغير اتجاهاتها دون أي قانون.. جعلت ندى تدور حول نفسها فاقدة أي سيطرة على جسمها.. تحاول أن تثبت قدميها فلا تستطيع.. ضمت حملها إلى صدرها بقوة حتى لا ينفلت منها فانفلتت حقيبة يدها - بعد القبعة - وطارت مبتعدة لتستقر في بركة ماء.. أطلقت صرخة.. الأوراق.. التذاكر.. الموبايل.. دفتر الشيكات.. الطائرة.. مريم.. رأس السنة.. اندفعت دون تفكير كي تلقي بنفسها تجاه الحقيبة فالتوى جسدها وسقطت في الطين واقعة حيث هي.. واشتدت الريح وصرخت وطار البالطو عن يسري وأحس لتوه أنه داخل ثلاجة الموتى.. حاولت ندى أن تنهض فأحست ألما طاغيا في جسمها لقد تمزقت عضلات ظهرها.. أسندت إحدى يديها دعامة على الأرض الزلقة بينما تمسك بيدها الأخرى حملها الذي وقع في حجرها تحاول النهوض وتغير وضعها إلى زوايا جديدة لكن لا فائدة.. وازداد غضب الطبيعة وتحول البرد إلى عاصفة ثلجية وأصرت الريح أن تعريها فنزعت البلوزة التي كانت تحمي صدرها وعادت تحاول أن تنهض لكن يسري زاد تعلقا بعنقها فلم تقو حتى على مجرد الحركة. ذهبت كل المحاولات سدى.. أخذت تصرخ بأعلى صوتها تنادي على "عم عبده" من جديد لكن العجوز لم يكن خارج

الباب فقد اعتبر مرض الدكتور عقابا من اللـه فأصبح يغادر مكانه إلى المسجد ينام داخله. صرخت تنادي على "السائق" لكن السائق لم يعد يأتي في موعده بعد أن أصبح يستغل سيارة الدكتور كمورد رزق. لم يبق إلا روبي.. صرخت تستنجد به فاكتفى بالرد نباحًا. تلبسها إحساس بالعجز وبالوحدة وبدأت السماء ترسل ماءها مجمدًا في شكل حبيبات أخذت تدق وجهها وجسدها كرؤوس المسامير لا تعرف كيف تتحاشاها أو تهرب منها وزادت رعشة يسري ولم يعد يعرف أين يسند رأسه!

تحاول ندى الزحف في الوحل فلا تتحرك من مكانها تمد يدها أمتارًا تحاول أن تصل إلى حقيبتها عبثًا.. يأتيها من داخلها رنين التليفون تسمعه نداء تبعثره الريح في الاتجاهات الأربع "يا دنيا يا غرامي" فتعود تمد يديها تلملمه فيواصل "يا دمعي يا ابتسامي" ها هي الحياة داخل حقيبة.. قريبة جدًا وبعيدة جدًا.. كيف تصل إليها.. العقل يسأل والجسم عاجز.. تصرخ فيهرع إليها روبي.. يقف أمامها لا يفهم لكنه يعوي.. الحيوانات تحس.. تفهم.. تمسح على شعره وتشرح له.. تشير إلى الحقيبة فيسرع يتشمم ملابسها المبعثرة. البالطو والبلوزة والإيشارب والقبعة.. يعلو داخلها الأمل.. تشير إلى الحقيبة فيسرع إليها.. يسمع رنين التليفون فيتراجع.. تضرع إليه أن يمد فمه ويحمل الحقيبة إليها.. حياتها تتوقف على وفائه.. الكلاب أوفياء هى التي منحته كل شيء منذ كان جروًا.. أطعمته ودللته واشترت

له ملابس وصنعت له كوخًا يؤويه من البرد.. أهكذا يتركها تتجمد في الخلاء؟ كلاب كثيرة أنقذت أصحابها من الغرق ومن الموت فلماذا لا تفعل؟ وما أن يبرق البرق وتصرخ الريح ويصرّ الرعد على أسنانه حتى يلمّ روبي نيله هاربًا إلى الكوخ.

***

كفّ نداء الحياة في التليفون.. صمت العالم كله.. اسودت الدنيا كلها بالسحب القاتمة والأفكار الأشد قتامة.. هل نسيها العالم؟ هل نسي ندى ذات الجونلة والفيونكة التي كانت تقف في طابور الصباح تغنى مع زميلاتها

"صباح الخير أيها العالم الجميل"

"صباح الخير أيتها الشمس المشرقة"

أين ذهب هذا العالم الجميل

أين اختفت الشمس المشرقة؟

***

أقلعت الطائرة ودخلت مريم الدير واختفت باريس وراء الغمام وبدأ عام جديد.

***

عقربا الساعة يتعانقان.. يتوقف الزمن لدقيقة واحدة يتبادل فيها المحبون القبلات والتهاني بالعام الجديد بينما هي منسية في العام القديم؟ أحست بوحشة وغربة.. راودها إحساس مفاجئ أن يسري قد خطفته الريح فراحت تتحسسه في حجرها شعرت أن جذورًا تنبت فيها تشدها إلى الأرض وأنها تتحول شجرة فمدت كفيها إلى السماء وصرخت وعلا صراخها وسط الليل الموحش والبرد والرعد والبرق والظلام فانتبه يسري للحظة وهو يحس دبيب الموت يقترب منه وشهق شهقة عظيمة كأنما يسحب آخر نفس من أنفاس الحياة فانفتحت أبواب السماء ورأى - في غشاوة العينين - رحمة اللـه كمشكاة فيها نور.. وفي النور الإلهى رأى كل من أحبهم: أباه وأمه وابنه هشام وصديقه المتيّم ولاعبي السيرك وشروق كما رأى برومثيوس وفينوس وجاليليو ونيوتن وآينشتين وإديسون.. رآهم جميعا نصف موتى نصف أحياء يمدون إليه أيديهم ضارعين يطلبون الدواء فهَم أن يمدّ لهم يده معانقًا لكن البرد كان قد جمّدها.. فابتسم ابتسامة باهتة ومات.

*

هدأت الطبيعة قليلا.. خفّ البرد وانقشعت الغيوم وسكت الرعد.. وكف البرق.. وبدا يسري هادئا وديعا نائما في حجر ندى وقد اختفت من وجهه كل التجاعيد.. عيناه مفتوحتان في نظرة ثابتة إلى

المحبوبة وفمه المفتوح الخالي من الأسنان يبدو كجرح لم يندمل بينما رأته ندى فم طفل رضيع ولد في العراء بلا أب فغمرها نحوه حنان جارف فانحنت عليه ومدت يدها إلى صدرها وأخرجت ثديها والقمته الحلمة.

وانساب الحليب..

وانسابت الدموع...

المؤلف في سطور

بهيج إسماعيل

- شاعر وكاتب مسرحى وله أكثر من ثلاثين مسرحية معروفة عرضت على مسارح الدولة والقطاع الخاص وقام بتمثيلها معظم نجوم الصف الأول في السينما والمسرح.
- حائز على جائزة الدولة التشجيعية عام 1992 وجائزة الدولة في التفوق للآداب 2016.
- عضو بالمجلس الأعلى للثقافة.
- كاتب رأي بجريدة الأهرام، وله عامود نقدي بالأهرام المسائي.
- كتب أول فيلم مصري تجريبي باسم "المقيدون للخلف" وحاز على جائزة عالمية.
- كما فازت مسرحيته "حلم يوسف" بالمركز الأول في مهرجان فولفوجراد بالاتحاد السوفيتي العالمى الذي ضم خمسين دولة.
- تنوعت دراسته بين العلم والفلسفة والسيناريو.

المَنْفى والملكوت

- "ما لون قميصك؟"
- "برقوقي مشرق"
- "وما نوع نبيذ الشفتين؟"
- "توت برّي"
- "وهذا العطر الخارج من جسدك.. لا رحمة فيه من أي الغابات شرب؟"
- "لا أدري.. كنت صغيرة"
- "أو لم يخبرك بشيء عني؟"
- "أخبرني أني حين أعي.. لن تتفتح أزهاري إلا في بستانٍ مجنون".

وحدهما يعيشان في القصر الكبير.. هي في السابعة عشر.. عشقته كرجل وحيد لم تعرف غيره منذ كانت طفلة.. وعشقها وهو يقترب من السبعين وحارت عواطفه تجاهها: هل يتعامل معها كأبٍ أم كعاشق أم كطبيب؟ كان الموت يسكن جسدها النابض دون أن تعرف بينما كان هو كطبيب يعرف ماذا يفعل.. ومن أجلها تحدّى الموت.

لوحة الغلاف: Olga Shvarsur
تصميم الغلاف: عمرو عبد العزيز

دار العين للنشر
Elain Publishing House

9 789774 904783